انطون الجميل

شوقي

مطبعة المعارف بشارع الفجالة بمصر

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
01171853

شـــوقي

شـاعر الأُمراء

عاش شاعرًا ومات شاعرًا

شاعريّتـهُ ومميّزاتُهـا

بقـــلم
انطون الجميّل بك

شوقى

فى العهد الأخير

أحمد شوقى

بعض مراحل حياته (*)

وُلد احمد شوقى	سنة ١٨٦٨
دخل مكتب الشيخ صالح	« ١٨٧٣
خرج من المدرسة الخديوية ودخل مدرسة الحقوق	« ١٨٨٣
سافر الى أوربا لدرس الحقوق والأدب	« ١٨٨٧
عاد الى مصر	« ١٨٩١
نُفى فى الحرب الى اسبانيا	« ١٩١٥
عاد من منفاه فى أواخر	« ١٩١٩

مؤلفاتـــــه

رواية لادياس
« ورقة الآس
« على بك الكبير
مذكرات بنتاؤر
الشوقيات (الأولى)
الشوقيات — ٤ اجزاء
رواية كليوباترا
« مجنون ليلى
« قمبيز
« على بك أو دولة المماليك
« عنترة
« أميرة الأندلس
اسواق الذهب
عظماء الاسلام
رواية السيدة هدى
« البخيلة

(*) عن كتاب « ١٢ عاماً مع أمير الشعراء لسكرتيره احمد عبد الوهاب ابى العز »

كلُّ إنسانٍ يستطيبُ الثناءَ . ولكنَّ الأديبَ والشاعرَ ، والمفكرين عامةً ، يغتبطون بانتشار أفكارِهم وترديدِ أقوالهم أكثر من اغتباطهم بالثناء عليهم

وقد أشار الفيلسوفُ الألمانى نيتشه إلى ذلك إذ قال : « أصغيتُ إليهم لعلّي أسمع صدى صوتى ؛ فلم يصل إلى أُذنى إلاَّ صدى تصفيقهم . »

ولقد حاولنا فى هذه الدراسات التحليلية عن « شوقى » أن نُسمِعَهُ صدى أقواله . بالاستشهادِ بالكثير من شعرهِ تأييداً لما قلنا عنه .

ا . ج

شوقى

شاعر الأمراء(*)

ما عَرفنا شاعراً صيغ له من قلائد المدح ، ونُظم فيه من عقود الثناء ، ما صيغ ونُظِم فى شوقى : فهو الملقَّب بأمير الشعراء ، وكلُّ قصيدةٍ له تُنعت بالعصماء ، وكلُّ منظومةٍ من منظوماته تُعَدُّ شوقيةً غراء . كلماتُهُ الدرّ النظيم ، ومعانيه الجوهر اليتيم . هكذا تصفه سيارة الصحف ، وهكذا يقول فيه رواة شعره .

ولقد استحقَّ الكثيرَ من هذا الوصف : فهو شاعرُ الغزَل والنسيب ، وناظمُ الحوادثِ والتاريخ ، صاحبُ الحكَم الرائعة والأمثال الذائعة ، ترجمانُ العاطفةِ الوطنية والذائدُ عن العقيدةِ الدينية ، مُحيي دارس الآثار ومستنهضُ الهممِ الى الأعمال الكبار ، الداعى الى الاتحادِ والوئام والمستخلصُ خالد الحقائقِ من الأحلامِ

(*) نشر هذا البحث فى « السياسة الأسبوعية » (٣٠ ابريل سنة ١٩٢٧) بالعدد الخاص بتكريم شوقى

ومن كان هذا شأنه يصعبُ أن يتناولَه البحثُ فى عجالةٍ موجزة . لذلك قصرنا بحثَنا اليوم هذا على مظهرٍ من مظاهر شاعريته الجمة ، وهو نزعتهُ السياسية وما طرأ عليها من التقلبات

ولمَّا كان الكاتبون قد أفاضوا فى الكلام عن شوقى « أمير الشعراء » ، فقد أردْنا أن نقولَ كلمةً عن شوقى « شاعر الأمراء » وما تخيّرنا طرْقَ هذا الموضوعِ الوعرِ المطلب ، الشاقِّ المسلك يومَ تحتفى البلادُ العربيةُ قاطبةً بتكريم الشاعرِ الكبير ، إلاَّ لأنَّ البعضَ ما زال يهمسُ بهِ همساً دون التعرُّضِ له بالبحث والتحليل ، ويُشيرُ اليه من باب التلميح لا من باب التصريح . واذا كان من مستلزمات التكريم إذاعةُ المناقب ، فقد يكون من مستوجباتهِ كذلك دَفْعُ بعضِ التهم ، ليكونَ التكريمُ تامًّا كاملاً ، لا تشوبه شائبة . وعلى كلٍّ فما خلا مخلوقٌ من تهمة مهما علا قدره ، بلِ قد تزيدُ التهمُ حولَه كلما علا قدره : كفى المرءَ نُبلاً ان تُعَدَّ معائبُهْ

* * *

قالوا : اذا لُقِّب شوقى بأمير الشعراء ، فلأنه كان شاعرَ الأُمراء ، على قاعدةِ القلب المعروفة عند العرب

مَدَحَ أقيالَ مصر من اسماعيل الى توفيق الى عباس الى حسين الى فؤاد . وكثيراً ما ذهبَ صعوداً من الأحفادِ الى الأجداد ، فتطرّقَ الى مدح سعيد وابراهيم ومحمد عليّ . بل رجع الى التاريخ القديم يُقلِّب صفحاتِهِ ، فيمدحُ سلاطينَ مصر وخلفاءها وفراعينها ويتغنّى بمآثرهم ويشدو بآثارهم ، مُجيداً فى مدحِهم جميعاً

وكذلك كان شأنُهُ مع سلاطينِ بنى عثمان الذين تعاقبوا على عهدِهِ : فكما مدح عبدَ الحميد أطرى رشاداً ؛ وكما أطرى رشاداً أشاد بمحمد الخامس . وكما تغنى بعظمة السلاطين والخواقين ، تغنى بأبطال الحرية والدستور العثمانى ، وكما أطنب بذكر سلاطين الاستانة أطنب بذكرِ رجالِ أنقرة

فكان من وراء ذلك أنِ اتَّهمَهُ البعضُ فى صحَّـةِ عقيدتهِ السياسية ، وشكَّ فى نزاهة مبدأه الاجتماعى . وقيلت عنه أحياناً كلماتُ الزلفى والتملّق ، فزعموا أنَّهُ مدّاح السلطة ، أيةً كانت السلطة ، ومطرِى القائمين بالأمر ، أيّاً كان القائمون بالأمر

تهمةٌ لا تقومُ على أساسٍ اذا حلَّلنا نفسيةَ شوقى ؛ وتشكُّكٌ يضمحِلُّ من نفسهِ اذا نظرنا الى الحوادث والأحوال التى أحاطت

بالشاعر ، فحملته على تغيير اسم الممدوح دون أن يُغيِّرَ مطلبَهُ من المدح ، وعلى تبديلِ العنوان دون أن يبدِّل ما تحت العنوان . فالنصائحُ هى هى مهما تغيّرت المدائح ، وهو القائل :

« ولى غرَرُ الأخلاق فى المدح والهوى »

خَدَم الحريةَ لأنه أحبها ؛ ودعا الى الاصلاح لأنه لمسَ الحاجةَ اليه ؛ وقال بوجوب نشرالعلم ومكارم الأخلاق لأنه عرف أنها أساسُ العمران . ومن أجلِ ذلك خدم السلطةَ لأنه رآها واجبةً لازمة لتحقيق جميع تلك المطالب

لا يصلحُ القوم فوضى لا سراةَ لهم ولا سراةَ إذا جهّالهم سادوا

مدح جميعَ من ذكرنا من الملوكِ والأمراء ، ولكنَّه نصح لكلٍّ منهم بالاصلاح ، واحترام الحرية ، والعمل على ترقية البلاد ، وحسن سياسة العباد ، ورفعِ منار العلم . وهو يرى أنَّ جميع هذه الأمور لا تتمُّ فى الشرق إلاَّ على أيدى القائمين بالأمر فيه ، لأنَّ الاصلاحَ اذا كان محققاً ولا محالة ، كما يقولون ، إمَّا من الأعلى وهو التحوُّل ، وإمَّا من الأدنى وهو الثورة ، فهو يريدهُ عن طريق التحوُّل ، أى من الأعلى ، على يد صاحب السلطان .

هذه هى نظريتهُ الاجتماعية . فهو يطلبُ الخيرَ لهذا المجتمع الشرقى عن هذه الطريق

ولا جَالَ الاّ الخيرُ بين سرائرى لدى شدّةٍ خيريّةِ الرغبـــاتِ

يمدحُ الخديو عباساً ، ولكنه يقول له :

لا يُظهر الكبراء آيةَ عزّهم حتى يُعزّوا آيةَ الأفكار

ويذكّره ، وهو يفتتح الجامعة المصرية ، انّ

تركَ النفوس بلا علمٍ ولا أدبٍ تركُ المريض بلا طبٍّ ولا آسِ

واذا قال لتوفيق :

لك مصرُ يجرِى تحت عرشِكَ نيلُها ولك البــلادُ عريضُها وطويلها

فقد قال له فى القصيدة نفسها :

كانت خزائن مُلكها بيــد البلى نهباً مبــاحاً للرقيب دخولُها

ألقت مفاتِحَها اليك فأصبحتْ يزنُ الزمانُ كنوزَها ويكيلُها

واذا مدح اسماعيل أنصفه فى قوله :

لم يرَ النـــاسُ مثلَ أيام نعما كَ زماناً ولا كبؤسك عهدا

كنتَ إن شئت بُدّل السعدُ نحساً وإذا شئت بُدّل النحس سعدا

واذا مدح الملك فؤاد عقّب على المدح بقوله :

إنْ سرّكَ الملكُ تَبنيهِ على أُسُسٍ فاستنهضِ البانيَين العلمَ والأدبا

وارفعْ له من حبالِ الحقّ قاعدة ومدّ من سبب الشُورى لها طُنُبا

يدعو الأزهريين الى الالتفاف حول العرش

كونوا سياج العرش والتمسوا له نصراً من الملك العزيز مؤزّرا

ولكنه يعلق على ذلك بقوله

وتفيأوا الدستور تحت ظلاله كنفاً أهشّ من الرياض وانضرا

فماذا يهمنا اسم الممدوح ، وماذا يهمُّ ، بنوع خاص ، الأجيالَ القادمة اذا كان المدحُ ينطوى على مثلِ هذه العظاتِ والحِكم البالغة . فليمدحِ الشاعرُ من شاء من الملوك ما دام يقول له :

والعدل فى الدولات أُسٌّ ثابتٌ يُفْنِي الزمانَ ويُنفِدُ الأجيالا

أو ما دام يهيب به :

إِن ملكتَ النفوسَ فابغِ رضاها فلها ثورةٌ وفيهـــا مضاء

يسكنُ الوحشُ للوثوب من الأســرِ ، فكيف الخلائقُ العقلاء

ألا يحتاج الشاعر — كما يحتاج الحكيم — إلى الحيلة ليحمل حملتَهُ على روح الاستبداد كما يفعل شوقى مشيراً إلى توت عنخ آمون :

المستبِدُّ يُطاقُ فى ناووسهِ لا تحت تاجيهِ وفوق وثابهِ(١)

والفرد يؤمن شرُّهُ فى قبره كالسيف نام الشرُّ خلف قرابهِ

---

(١) الوثاب السرير الذى لا يبرح الملك عليه

ألا يُعَدُّ الشاعرُ أبلغ مرشدٍ وأهدى هاد — فى مدح الملوك — إذا عرف أن يقول كشوقى :

زمانُ الفردِ يا فرعونُ ولَّى ودالت دولةُ المتجبرينـا
وأصبحتِ الرعاة بكل أرضٍ على حكم الرعية نازلينـا
فؤاد أجلُّ بالدستور دنيا وأشرفُ منك بالاسلام دينـا
بنى (الدار[١]) التى لا عزّ الاّ على جنباتها للمالكينـا
ولا استقلال الاَّ فى ذراها لمتبوعٍ ولا للتابعينـا

أليس من البراعة أن تمدح المرء بمحمدة لتُحبّبها إليه ، وان تذمّ له منقصةً لتكرّهه فيها ؟ أليس ذلك ما فعله شوقى فى قوله للسلطان محمد رشاد :

جدَّدتَ عهد (الراشدين) بسيرةٍ نسجَ الرشادُ لهـا على منوالهِ
بُنِيَت على الشورى كصالح حكمهم وعلى حيـاةِ الرأى واستقلالهِ

وفى قوله :

وإذا سبا الفردُ المسلَّطُ مجلساً ألفيتَ أحرارَ الرجال عبيدا

بمثل هذا مدح شوقى الملوكَ والأمراء ، متخذاً المديح فى أغلب الأحيان وسيلةً لطلب العدل والانصاف فى الرعية ،

---

(١) دار النيابة

ولتمجيد الشورى والحرية ، كما رأيت فى ما ذكرنا وما تجد منه الشيء الكثير فى سواه

وهكذا لم يغيّر عقيدتَهُ السياسية ومبدأه الاجتماعى . فهما هما فى جميع مدائحه وإن تبدَّل اسمُ الممدوح . والشاعر شاعرٌ أيًّا كان الرويُّ الذى يختارهُ لقصيدته ، ما دامت نفسهُ حساسةً وقريحتهُ فيَّاضة . وهل اسم الممدوح فى جميع ما ذكرنا سوى الرويّ ؟

وقد قال هو نفسه :

جلالُ الملكِ أيّامٌ وتَمضِى   ولا يَمضِى جلالُ الخالدينا

ونعتقد أنه لا بُدَّ من شجاعةٍ فى النفس للاقدام على ذلك ، كما أنه لا بد من كثير من البراعة والمرونة واللباقة لهذا التغيير فى الشكل دون التغيير فى الجوهر ، حتى يتمَّ ذلك بلا تبجُّح ولا تعصُّبٍ للمبدأ الجديد . والتعصُّب ، كما هو معروف ، ملازِمٌ عادةً لمن يذهبُ مذهباً جديداً ، فى السياسة أو فى الدين . وهذا ما عرف شوقى أن يتجنَّبَهُ . فاذا دعا إلى حكومةٍ جديدة ، انقياداً لصوت الشعب ، فهو لا يُنكِرُ صداقاتِه القديمة بل لا ينفضُ

يدَهُ من يد الذين لا يزالون على غير فكره . وإذا دالت دولةٌ من دول الشرق التى كان لها نصيبٌ من مدحه وتمجيده ، فلا يرى وجوبَ النعي والنحيب والامتناع عن مجاراة الزمان ؛ بل يبرزُ للدولة الجديدة مُطرياً مادحاً مع دعوةٍ إلى الاصلاح وإلى تحقيق ما لم يتحقَّق على عهد سالفتها . فخلاصة مبدأه : الترحيب بالحاضر مع احترام الماضى . وأتمُّ مثالٍ على ذلك قصائدُهُ فى الأستانة وأنقره ، ورجالِ هذه ورجال تلك

وهكذا يضربُ خيامَهُ فى معسكرٍ غير الذى كان ضارباً خيامَه فيه بالأمس ، ولكن دون أن يحقَّ رميهُ بالجحودِ ، أو اتهامهُ بالخيانة والمروق .

أأخونُ اسماعيلَ فى أبنائه ولقد وُلِدتُ بباب اسماعيلا
ولبستُ نعمتَهُ ونعمةَ بيتِهِ فلبستُ جَزْلاً وارتديتُ جميلا

ومن نشأ كشوقى فى عهدٍ كانت فيه مصرُ بين سلطان الفرد المتأصّل فى صدور الشرقيين وحكم الشورى النابت فى عقولهم ، ومن رَبِيَ مثلهُ فى قصورِ الأمراء وحلَّ ضيفاً على السلاطين ، ثمّ رأى كيف تنهار القصورُ وتثلُّ العروش ، وكيف

تُولَدُ الثورات فتهتزُّ لها الأعصابُ اهتزازاً ، وكيف يقومُ الدستورُ فيسكب على القلوب سلاماً ويثير فى النفوس اعتزازاً ، ومن عرف كشوقى نعيم الحياةِ وبسطة الجاه ، ثمّ ذاق ألمَ النفى والإبعاد ، لا يُستكثَر عليه أن يعرِفَ كيف يرتفعُ فوق الأشخاص ويسمو عن العرَض الزائل إلى الجوهر الخالد ، فيمدح المَلِك لخير المملكة ، ويمجّد السلطانَ لخير السلطنة . لأن تجاريبَ الزمان زادت فى استقلال عقلِه ووسعت دائرته للاحاطة بكل فكرة سامية . فاذا رأى فى تلك الفكرة فائدةً لذلك الشرقِ الذى تغنَّى به ، فلا يتأخَّرُ عن الإشادة بها ، ولو كانت من الأفكار التى لم يقُلْ بها فيما مضى . وهو فى ذلك ليس بالجاحدِ ماضيه ، ولا بالمنكر عقيدته ؛ بل هو من طائفةِ الرجال الذين هذَّبهم الدهرُ وثقفهم ، فأصبحوا يحدبون على وطنهم ، ويتألمون لآلامه ، فيطلبون له النجدةَ من أى جانبٍ بدَتْ ، ولو من جانب الأفكار التى كانت بالأمس مغايرةً لأفكارهم ؛ فلا ينعزلون فى بُرجِ حقدِهم وغضبهم بحُجَّةِ الاحتفاظ بالمبدأ ، بل يواصلون الجهادَ فى خدمةِ وطنهم ولو تحت رايةٍ جديدة

وعلى ذلك يمكن القولُ إنَّ مدائح شوقى صورٌ واستعاراتٌ شعرية ، لا عقيدةٌ سياسية . فاذا مدح الملوكَ والأمراء لا يمدحُ سلطتَهم المطلقة ، ولا يراهم كما رآهم بعضُ قدماء الكتاب فى الشرق والغرب من طينةٍ غير طينة البشر

لا يقولنَّ امرؤٌ أصــلى فما أصلُهُ مسكٌ وأصلُ الناسِ طينْ

وإذا غيّر أسماء ممدوحيه ، فانه لا يغيّر ما يقصدُ إليه من وراء المدح . فما ممدوحُه سوى الرويّ فى الشعر ، لا يُنقِص من قيمةِ الشعر ولا من مبلغ مرماه الاجتماعى . وما كانت هذه التقلّباتُ لتنتقص مجدَهُ فى الزمن الآتى ، وإن أراد البعضُ انتقاصَه فى الزمن الحالى : فالأجيالُ الآتية لن تعرفَ شيئاً عن ضعفنا ويأسنا ووهن عزيمتنا ، بل ستُدركُ كيف يستطيعُ المرءُ أن يُعدّلَ رأيَه دون أن يكون جاحداً ، ولا سيما فى عهد الثورات الفكرية والانقلابات السياسية .

بل إنَّه لولا هذه التقلباتُ ما كان شوقى على ما هو الآن . فقد قال النقادة « لاهارب La Harpe » ما معناه : « إنَّ فى عصور الاضطرابات ما يُضعِفُ الحكوماتِ ، وما يقوّى الشعرَ والخطابة »

فمن رأى كلَّ ما رآه شاعرُنا من الحوادثِ العظام يزدادُ احتراماً لكل ما من شأنه دعمُ السلطةِ والعقيدة ، والقضاء على الفوضى فى الأفكار ، فلا يفهم المنازعات الحزبية بل يدعو الى الوئام والمسالمة . اسمعوه ينادى بأعلى صوته :

إلامَ الخلفُ بينكمو إلاما وهذى الضَّجةُ الكبرى علاما
وفيمَ يكيد بعضكم لبعض وتبدون العداوة والخصاما

أو يقول :

واذا دعوتُ الى الوئام فشاعرٌ أقصى مناهُ محبةٌ وسلامُ

ودَعْوَتُهُ الى الوئام جامعةٌ شاملة ، فهى تتناول الأديانَ كما تتناولُ الأحزاب . فما قاله فى « موسى والمسيح وأحمد » لم يقله شاعر قبله .

وإذا كنا لا نلومه لقوله الآن

اهجروا الخمرَ تُطيعوا اللهَ أو تُرضوا الكتابا
انها رجسٌ فطوبى لامرئ كفَّ وتابا

بعد أن كان قد قال فى صباه

رمضانُ ولَّى ، هاتِها يا ساقى مشتاقةً تسعَى الى مشتاق

فعلامَ نلومه لأنه قال فى سوى ذلك غيرَ ما قاله بالأمس ؟

وهذا الشاعر الارستقراطى الذى يجوز بحقٍّ تلقيبه بشاعر الملوك والأمراء، كان أيضاً شاعرَ الشعب فتغنَّى بأبنائه العصاميين ودافع عن حقوقه فقال :

سُخِّر الناسُ وان لم يشعروا   لقويٍّ أو غنيٍّ أو مبينْ
والجماعاتُ ثنايا المرتقى   فى المعالى وجسورُ العابرين

وخاطب العمّالَ بقوله :

قد دعاكم ذَنَبَ الهيئةِ داعٍ فأصابا
هى طاووسٌ وهل أحسَنُهُ إلا الذنابا

ولا يتبادر إلى ذهننا أن هذا التغيير يتمُّ عنده بلا نزاعٍ ولا تردُّد بين الماضى والحاضر، فهو يقول تارة

لا تحذُ حذوَ عصابةٍ مفتونةٍ   يجدون كلَّ قديمِ شىءٍ منْكرا

ويقول أخرى

الهدم أجملُ من بنايةِ مصلح   يبنى على الأُسُسِ العتاقِ جديدا

وصفوةُ القول إنَّ شعرَهُ مرآةٌ للرأى العام وتبَعٌ لتقلُّباتِ الحوادث يُسجِّلُها فيه ويرويها فى تلك القصائد التى يتغنى بها أبناء العربية فى كل قُطر، فتتجلى فيها نزعات الرأى العام أكثر ممّا تتجلى فيها مبادىء الشاعر السياسية . فهو كالنحلة تأخذ عسلها

من كل زهرة . أليس شوقى القائل فى النحل :

فهلْ رأيتَ النحلَ عن أمانــــةٍ مُقصِّرَهْ
ما اقترضتْ من بقلةٍ أو استعارت زَهَرَهْ
ادَّت الى الناسِ بهِ سُكَّرة بسكَّرهْ

وما دمنا فى ذكر تسجيل الحوادثِ وتدوين الوقائع فى الشعر نخليقٌ بنا أن نُشيرَ إلى ما كان لشعراء مصر من الفضل العميم على نهضتها من خليل وحافظ إلى العقاد والمازنى ، ومن الرافعى ومحرم إلى الكاشف ونسيم . فقد تابعوا النهضة فى سيرها فسجلوا وقائعها فى قصائدَ ملؤها الروحُ السامية ، بل سيَّروا النهضةَ فى منهجها القويم بسديد أقوالهم ، فرفعوا منارَ مصرَ وأعلوا شأنها بين الأمم

وإذا رجعنا إلى أمير الشعراءِ أو شاعرِ الأُمراء ، ذكرنا أنه يُروَى عن الايطاليين قولهم : لوكانت حكومتنا جمهوريةً ما انتخبنا رئيساً لها غيرَ ملكنا . . .

ونعتقد أنه لوكانت دولة الأدب امارة ما اختار أدباؤنا أميراً لها غيرشاعر الأمراء ، فهو جديرٌ بأن يتسنم عرشَ الامارة عن

رضى واختيار من أركان دولة الشعر فى هذا العصر، لأنه قد اجتمع له من صفات الشاعرية ما يؤهله لذلك. ولعلّ الاحتفاء به فى هذا الأسبوع يتمّ بمبايعته رسمياً بالامارة. فقد صح فيه ما قاله عنه المرحوم اسماعيل صبرى باشا منذ ثلث قرن:

مَرَحَباً بالقصيدِ يتلوهُ للشعــــرِ أمــيرٌ يُصغي لهُ أُمراءُ

وقد تمت هذه المبايعة فى الحفلة التى أقيمت بعـد أيام (٢٩ ابريل سنة ١٩٢٧) فى دار الاوبرا الملكية لتكريم شوقى فألقى فيها الشاعر الكبير «حافظ ابرهيم» قصيدة عامرة تقدم فى أثناء إلقائها من المقصورة التى كان أحمد شوقى جالساً فيها، وأخذ بيـد زميله منشداً بين التصفيق وهتاف الاعجاب بالشاعرين:

أميرَ القــوافى قد أتيتُ مُبايعاً وهذى جموعُ الشرقِ قدبايعَتْ معى

شوقى

عاش شاعراً ، ومات شاعراً (*)

ما أشأم هذا الصيفَ على الأدبِ العربى !

غيَّبتْ أشهُرُه الثلاثة من سماءِ الشعر فرقَدَيه ، وقوَّضت من صرحِ الأدبِ ركنيه .

ما همَّت شمسُ الصيفِ بدخول « برج الأسد » فى أوائل الفصل حتى أغارت على الأدبِ فطاحت بفارس ميدانهِ ؛ وما استوَتْ عندَ أواخرِ الفصل فى « برج الميزان » حتى عبثت بفيصلِ الشعر وميزانهِ .

ما كفكفتْ مصرُ دموعَها على « حافظ » حتى عادت تُطلِقُها اليومَ على « شوقى » . وما انتهت أنديةُ العرَبِ من توفية « حافظ » حقَّ التأبينِ والرثاء ، حتى حمل اليها البرق نعى إمام الشعر وأمير الشعراء .

منذ عشرة أسابيعَ أو ما يقربُ من هذه المدَّة ، كان الأدبُ العربى يتيهُ بشاعريه فخراً ، ويطاولُ بهما أزهى عصور الأدب

(*) نشرت بالاهرام ، يومَ وفاة شوقى

زهواً ، وها هو اليومَ ، وقد فُجِع بهما ، الواحد تلوَ الآخر ، يبكيهما معاً ، فلا حول ولا قوة الاَّ بالله !

أَما مِصرُ فان شعرَ شوقى وحافظٍ قد أجلسَها الصدرَ بين بلاد العرب ، وثبتَّت فى يدِها مدةَ ثلث قرنٍ صولجانَ الأدب . فكانت مصر تباهِى سائرَ الأمصار ، وكان عصرُها بشاعريها عصراً يُدِلّ على العصور ويفاخر عهدَ بغدادَ والاندلسِ فى إبَّان الازدهار .

* * *

يقول اللاتين : « يصيرُ الخطيبُ خطيباً ، ولكنَّ الشاعرَ يُولدُ شاعراً » .

وقد وُلد شوقى شاعراً ، وظل شاعراً من مهدِه الى لحدِه .

كان شاعراً يوم دخلت به جدَّتُه على الخديوى اسماعيل ، وهو فى الثالثة من عمره ؛ وكان بصرُه لا ينزلُ عن السماءِ من ارتجاج أعصابه . فطلب الخديوى بَدرةً من الذهب ، ثم نثرَها على البساطِ عند قدميـه ؛ فوقع شوقى — كما روى فى مقدمة ديوانه — على الذهبِ يشتغل بجمعهِ واللعب به . فقال الخديوى

لجدَّتهِ : « اصنعى معه مثلَ هذا ، فإنه لا يلبثُ أن يعتادَ النظرَ إلى الأرض » . قالت : « هذا دواءٌ لا يخرجُ إلاّ من صيدليتك يا مولاى » . قال : « جيئى به إلىَّ متى شئتِ ، إنى آخرُ من ينثرُ الذهبَ فى مصر . . »

وكان شوقى شاعراً ، وهو طالبٌ فى المدرسةِ ، وقد أخذت إلاهةُ الشعرِ تُوحى إليهِ بالصورِ الجميلةِ والكلامِ الموزونِ الموسيقىّ.

وكان شوقى شاعراً ، وهو يطلبُ الحقوقَ والآدابَ فى فرنسا ؛ وقد نظم فى تلك الحِقبةِ من القصائدِ ما كان يبشّرُ بما سيصيرُ اليه من الإمامة والإمارةِ فى دولةِ القريض .

وكان شاعراً ، وهو يُمثّل الحكومةَ المصريةَ فى مؤتمر جنيف ؛ فنظم قصيدةً غرّاء تضمَّنت ما وقعَ فى وادى النيل من كبارِ الحوادثِ منذ فجرِ التاريخ .

وظلَّ شاعراً فى جميع أدوار حياته ، وهو فى أوج الجاه وأبَّهة المناصب العالية والنفوذ لدى الحكام ؛ وظلَّ شاعراً ، وهو فى منفاه يطوفُ ربوعَ الأندلس ويتغنى بمفاخرِها الدارسة ، ويبكى ويستبكى حنيناً إلى وطنه

وظل شاعراً بعد عودته إلى ذلك الوطن ؛ بل قد يكون هذا العهدُ ، وهو عهدُهُ الأخير، أَخصبَ أدوارِ عمرِه إنتاجاً شعرياً ، فقد أقلع فيه عمَّا ألفه اضطراراً ، بحكم لقبه ومنصبه، من الموضوعات التى حَفَلَ بها ديوانُهُ الأوّل ، وتوفَّر على كل موضوعٍ وطنيٍّ تاريخيٍّ عمرانى . وكأنَّ قريحتَهُ كانت تزدادُ صفاءً ورواءً مع تقدُّمِهِ فى السن ، وكأنَّ شاعريتَهُ كانت تزيد تدفُّقاً وغزارةً كلما أخذ معينُ الحياةِ ينضُبُ فى جسمه النحيل

فلم يكتفِ بالقصائد يقصِدُها ؛ بل عمد إلى أشهرِ الحوادثِ من تاريخ مصرَ وتاريخِ العرب ينظِمُها رواياتٍ تمثيليةً شعرية . وأَقبل على الفن الروائىّ يُعالجهُ فى سنٍّ يُودِّعُ فيها هذا الفنَّ غيرُهُ من الشعراء

وهكذا كان فى الحلقةِ الأخيرةِ من عمرِهِ يُطالعنا فى كلِّ حادثٍ من الحوادث بقصيدةٍ عصماء، ويزُفُّ إلينا فى كلِّ عامٍ روايةً حسناء

كان شاعراً فى « كرمة ابن هانى » يومَ كانت فى « المطريَّة » مباءةَ أهل الفضلِ والأدبِ ، وبعد أن انتقلت إلى « الجيزة »

على صَفّةِ النيل يجمعُ فيها أميرُها نفراً من أصحابِ النظر والرأى فى الكتابة فيُطلعُهم على رواياتهِ قبل أن يدفعَها إلى خشبة المسرح

وظلَّ شوقى شاعراً فى مماته : ففى الليلةِ التى تقدّمتْ صباحَ منيتهِ ، كانت احدى المغنيات الشهيرات تُنشِدُ قصيدةً من قصائدِهِ ، والجمهورُ يُصفّقُ طرباً لروعة الشعر . وبعد وفاته ببضع ساعاتٍ كانت آخرُ قصيدةٍ نظمها تُلقى فى حفلةِ الشباب القائم بمشروع القرش

وقد يختلفُ الرأىُ فى بعض شعره ؛ غير أنَّ فى دواوينه الكثيرَ ممَّا يرفعُ قائله إلى المرتبةِ الأولى بين الشعراء ، ويحفظُ ذكرَهُ خالداً فى تاريخ الأدب

ولقد كان ، رحمه الله ، على ما نال من بسطة العيش وكبير الألقاب وواسع الجاه وبُعد الشهرة ، وديعَ النفسِ مُنْخَفِضَ الجانبِ دَمِثَ الأخلاق

وكان عفَّ اللسان والقلم ؛ لم ينطقْ هجراً ، ولم يكتب هجواً

قال فيه المرحوم اسماعيل صبرى باشا

مرحباً بالمقالِ سمحاً كريماً   لم يَشُبْهُ هجوٌ ولا إيذاء
مرحباً بالبيان سحراً وبالشعـــرِ تُحلّيـــهِ حكمةٌ غراء

أما برُّهُ بأولادِهِ وعطفُهُ على أهلِ بيتِهِ فقد كانا مضربَ المثل؛ فكأنَّهُ خُلِقَ ليكونَ أباً، كما وُلِد شاعراً. وقد نظمَ في بنيهِ قصائدَ سوف يخلُدُ معها ذكرُهم

*
* *

أمَّا الآن، وقد مات حافظ، فمن ذا الذي يوفِّي شوقي حقَّهُ من الرثاء، وهو القائلُ منذ شهر في رثاء حافظ :

قد كنتُ أُوثِرُ أن تقولَ رثائي ... يا منصفَ الموتى من الأحياءِ
لكن سبقتَ، وكلُّ طولِ سلامةٍ ... قدَرٌ، وكلُّ منيّــــةٍ بقضاءِ

*
* *

وهكذا لفَّت المنيــةُ اليومَ علماً من أرفعِ أعلامِ الشعر، وطوَت صفحةً من أمجد صفحات الأدب العربي

وعند ما أُودِعِ شوقي القبرَ عند غروبِ شمسِ اليوم، لم يَسَعْنا إلا أن نذكرَ قوله :

أقولُ لهم في ساعةِ الدفنِ خفِّفوا ... عليَّ ولا تُلقوا الصخورَ على قبري
ألم يكفِ همٌّ في الحياةِ حملتُهُ ... فأحمِلَ بعدَ الموتِ صخراً على صخرِ

شوقى

شاعريته ومميزاتها (*)

منذُ خمسِ سنواتٍ وبعضِ السنة اجتمعنا فى هذا المكانِ نفسِهِ لتكريمِ « شوقى » ؛ واشتركتْ معنا وُفودُ الشرقِ العربىّ فى ضَفْرِ إكليلِ الغار على مَفرق أمير الشعراء ، كما هى تشتركُ معنا اليومَ فى نَثْرِ أزاهيرِ الذكرى على قبرِهِ . وكأنّى بالفقيدِ الكريمِ ماثلاً كالأمس فى مقصورته هذه ؛ وكأنّى بفقيدِنا العظيمِ الآخر — حافظ ابراهيم — باسطاً يدَهُ اليه ، وأجواءُ هذه القاعةِ تردِّد ، بين التصفيق والهتاف ، صدى صوته الفخم :

أميرَ القوافِي قد أتيتُ مُبايعاً   وهذى وُفودُ الشرقِ قد بايعَتْ معى (١)

أَما الفرقُ بينَ حفلتِنا هذه وحفلتِنا تلك ، فالفرق بين نشوةِ الحياةِ وهمدةِ الموتِ ، وبين بهجةِ الأعيادِ وخشوعِ المآتم .

(*) على أثر وفاة المرحوم أحمد شوقى بك تألفت لجنة من الادباء برياسة وزير المعارف لاقامة حفلة تأبين كبرى للفقيد الكريم . وقد طلبت اللجنة من المؤلف أن يخطب عن « شاعرية شوقى ومميزاتها » فوضع هذا البحث ولخصه فى خطبة ألقاها فى الحفلة التى أقيمت فى دار الاوبرا الملكية بعد ظهر يوم الأحد ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢

(١) راجع ذيل صفحة ٢١

وَلَئِن قصَّرَ خطيبُ اليومِ عن خطيبِ الأمس .

فمعذِرَةُ اليراعَـةِ والقوافِى جلالُ الرزءِ عن وَصفٍ يَدِقُّ[1]

حديثى معكم، أيها السادة، عن شاعرية شوقى، أو عن « شوقى الشاعر » . وهل كان شوقى فى حياته إلّا شاعراً ؟ وهل يبقَى منهُ بعدَ مماتِهِ غيرُ الشعر ؟ بضعةُ أسابيعَ مرَّتْ على وفاتِهِ ، وها قد نُسِيَ كبيرُ موظفى المعيّة وحاملُ الألقابِ الضخمةِ من الدولةِ العلية ؛ واضمحلَّ صاحبُ الثروةِ والجاهِ والنفوذ ، وعَفَا أَثَرُ العضوِ فى مجلسِ الشيوخ ؛ فأصبحنا ولا نروِي عنـه إلَّا ذلك الشعرَ الذى أرقص وأطرب ، ولا نذكرُ منهُ إلَّا ذلك الشاعرَ الذى نظم فأعجب .

ولقد أدركـ ذلك هو نفسُهُ إذ أنشدَ يومَ كان صاحبَ الصولِ والطول :

شاعرُ العزيزِ وما بالقليـل ذا اللقبُ

ويوم قال بعد منفاه :

ما ماتَ من حازَ الثرى آثارَهُ واستولَتِ الدنيـا على آدابهِ

---

(١) البيت لشوقى

بل إنَّ قيمةَ الشاعرِ فى نظرهِ لم تكنْ لتضارعها قيمةٌ

والله ما تدرِى لعـلَّ كفيفَهم   يوماً يكونُ أبا العلاءِ المبصرا
لو تشْتريهِ بنصفِ مُلـكك لم تجدْ   غبناً ، وجلَّ المشترِى والمشترَى

بل غالى حتى رأى الشعرَ مبعثَ كلِّ نهضةٍ قوميةٍ

لم تَثُرْ أمَّةٌ الى الحقِّ إلاَّ   بهُدَى الشعرِ أو خَطا شَيطانِهْ

بل زاد فى الغلوّ فقال :

أَنتمُ الناسُ أيهـا الشعراء . . !

*
* *

حَمَلَ قيثارةَ الشعرِ ، وهو غلامٌ يافع ؛ ولم تقعْ من يدهِ إلاَّ صبيحةَ وقعَ صريعَ الردى . ولقد ظلَّ بين العهدَين ، ما يَقرُبُ من نصفِ القرن ، يُخرِجُ منهـا أعذبَ الأنغامِ وأشجاها ، حيثما كان وكيفما كان : فى مواقف الروع ومواقع الحروب :

أمولاى غنَّتكَ السيوفُ فأطربتْ   فهلْ ليراعِي أنْ يُغنّى فيُطربُ
وعندِى كما عندَ الظبِي لك نَغمةٌ   ومُختلَفُ الأَنغامِ للأُنسِ أجلبُ(١)

أو فى مواطنِ الطمأنينة والابتهاج :

أَشهَى من العودِ المرنِّمِ مَنطقاً   وألذُّ من أوتارهِ تغريدا(٢)

---

(١) من قصيدته فى وصف الوقائع العثمانية اليونانية

(٢) من قصيدته فى تهنئة السجناء الذين كانت المحاكم العسكرية قد اعتقلتهم

لم يَشُدَّ إلى قيثارةِ الشعر وَتَرًا جديداً ؛ ولكنَّهُ عَرَفَ أن يُنطِقَ الأوتارَ القديمةَ بنغَماتٍ جديدةٍ مُستعذَبة . فأوتارُ العودِ معدودة، وهى هى، عدًّا ونوعاً، تحتَ أناملِ العازف . ولكنَّ كلَّ عازفٍ يفتنُّ فى النقرِ عليها ما شاءَ لهُ الافتنان، فيُسمِعُنا منها الجديدَ من الألحانِ . وألوانُ الشبَحِ الشمسىِّ واحدةٌ، ولكنَّ كلَّ مُصوِّرٍ يبتدِعُ من مزيجها شتَّى الألوان .

وهكذا كانت أوتارُ القيثارةِ القديمة فى يدِه تُخرِجُ ألحاناً مستجدَّةً فى كلِّ موضوعٍ، فكان :

يكادُ إذا هو غنَّى الورى بقافيــةٍ يُنطِقُ القافيَهْ
وتَحكمُ فى النفسِ أوتارُهُ على العودِ ناطقةً حاكيَهْ(١)

وما هى أوتارُهُ الناطقةُ الحاكية . . ؟

أيها السَّادة ! الدينُ والوطنُ عاطفتانِ غريزيَّتانِ فى قلوبِ الناس . فهُما وَتَرانِ أساسيّانِ فى قيثارة الشاعر . ما داناهما بلمسٍ إلاَّ أخرجا نغَماً بعيدَ القرار، وما نقَرَ عليهما إلاَّ استثار فى صدورِ الجماهيرِ الغيرةَ والنخوةَ والحماسة .

---

(١) من قصيدته فى رثاء « فردى »

وتر الدين

نقر « شوقى » على وتر الدين » فتغنى بالاسلام غناء جزلاً فخماً ، بلا تصنع ولا تكلف ، بل عن عقيدة وإيمان ، فكست عقيدته نظمه حلة قدسية ، وعقد إيمانه حول هذا النوع من شعره هالة نورانية

اسمعوه يعتز بالاسلام :

آياته كلما طال المدى جدد ... يزينهن جلال العتق والقدم
يكاد فى لفظة منه مشرفة ... يوصيك بالحق والتقوى و بالرحم
يا أفصح الناطقين الضاد قاطبة ... حديثك الشهد عند الذائق الفهم
حليت من عطل جيد البيان به ... فى كل منتثر فى حسن منتظم
يا (أحمد) الخير لى جاه بتسميتى ... وكيف لا يتسامى بالرسول سمى

واصغوا إليه يفخر بدول الاسلام :

دع عنك (روما) و (آثينا) وما حوتا ... كل اليواقيت فى (بغداد) والتوم (١)
وخل كسرى وايواناً يدل به ... هوى على أثر النيران والأيم (٢)
دار الشرائع روما ، كلما ذكرت ... دار السلام لها ألقت يد السلم (٣)
ما ضارعتها بياناً عند ملتأم ... ولا حكتها قضاء عند مختصم

(١) التوم جمع تومة ، وهى الحبة من الفضة تعمل على شكل الدرة
(٢) الايم الدخان (٣) دار السلام بغداد . السلم التسليم

وبملوك الاسلام :

ولا احتوت[1] فى طرازٍ من قياصرها ... على رشيدٍ ومأمونٍ ومُعتصم
من الذين اذا سارت كتائبُهم ... تصرّفوا بحدودِ الأرضِ والتخُم
ويجلسون الى علمٍ ومعرفةٍ ... فلا يُدانونَ فى عقلٍ ولا فَهَمِ

واذا انتصرت دولةٌ من دول الاسلام ترنّح طرباً ورنّح الشرقَ معه :

وأرّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجاز وكم ... قضى الليالىَ لم ينعَمْ ولم يَطِبِ
وازّينت أُمهاتُ الشرقِ واستبقَتْ ... مَهارجُ الفتح فى المَوْشيَّةِ القشُبِ
هزّت دمشقُ بنى أيُّوبَ فانتبهوا ... يُهنّئونَ بنى حَمدانَ فى حَلَبِ
ومسلمو الهندِ والهندوسُ فى جَذَلٍ ... ومسلمو مصرَ والأقباطُ فى طربِ
ممالكٌ ضمَّها الاسلامُ فى رحِمٍ ... وشيجةٍ[2]، وحواها الشرقُ فى نسبِ

يُقدِّسُ الاسلام ، ويجلُّ تقاليدَهُ العريقة ، وينبرى للذودِ عن الخلافة بجميع جوارحِه :

مَنْ قائلٌ للمسلمين مقالةً ... لم يُوحِها غيرُ النصيحةِ واحِ
عهدُ الخلافةِ فىَّ أولُ ذائدٍ ... عن حوضها ببراعةٍ نضّاحِ[3]
حُبٌّ لذاتِ اللهِ كان ، ولم يَزَلْ ... وهوًى لذاتِ الحق والإصلاحِ

---

(١) الضمير يعود الى روما (٢) وشيجة متصلة القرابة
(٣) الذائد الحامى . النضاح الدافع

وهو لا يُنزِّه المسلمين عن الأخطاء والهفوات ، ولكنَّ الذنبَ إنما هو ذنبهم لا ذنبُ الاسلام

من عادةِ الإسلام يرفعُ عاملاً ... ويُسوِّدُ المقـــدامَ والفعَّالا
ظلمَتهُ ألْسِنةٌ تؤاخِذهُ بِكُمْ ... وظلمتموهُ مُفرِّطين كسَالى
هذا هلالُــكُمُ تكفَّل بالهدى ... هل تعلمون مع الهلال ضلالا ؟

ومن هذا الشيء الكثيرُ ممَّا لا مجالَ لإيراده بجملتهِ، وتجدونه فى شتى قصائدهِ ، ولاسيما فى الهمزية النبوية، وعرفات ، والخلافة وذكر المولد ، والأزهر ، والهلال، ونهج البردة ، ورثاء مقدونيا الخ

ومثلُ هذه النبضات لا تَصدُرُ إلا عن قلبٍ عامرٍ بالإيمانِ :

شعرٌ من النسَقِ الأعلى يؤيِّدُهُ ... من جانبِ الله إلهامٌ و إيحاء

روى كاتبهُ الأديب فى كتاب أصدرَهُ منذ أسبوع(١) أنَّهُ كان يقرأ لهُ فى « المختصر من مكاشفة القلوب » للغزالى قال : « و بقيت حتى منتصَفِ الساعة الواحدة، ولم يبقَ إلَّا موضوعٌ واحد ، وهو وفاة رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم . ولكنى لفتُّهُ إلى أن هذا الوقتَ موعدُ رياضتهِ . فقال : حتى تُـتِمَّ . فقرأتُ لهُ موضوعَ الوفاةِ . فأخذ يبكى . » اه

---

(١) « ١٢ عاماً فى صحبة أمير الشعراء » بقـلم أحمد عبد الوهاب أبو العز

شوقى وأولاده

فى سنة ١٩٠٧

وكان تمسكه هذا بالدين بعد أن خبَر الدنيا وذاق حلوَها ومرَّها

جنيتُ بروضِها ورداً وشوكاً وذُقتُ بكأسها شُهْدًا وصابا
فلم أرَ غيرَ حُكم اللهِ حُكماً ولم أرَ دونَ باب اللهِ بابا

على أن هـذا الشاعرَ الراسخَ العقيدة، الصادقَ الايمان، لم يُسيءْ الى أحدٍ فى عقيدتهِ لأن مبدأه كان « المسلم من سلِمَ الناسُ من يدهِ ولسانه » وهكذا ترَونَ أُدباءَ المسيحيين والاسرائيليين يتغنون بشعرهِ الاسلامى، ويطربون لهُ طرَبَ المسلمين أنفسِهم. وقد يتناول أدقَّ الموضوعاتِ من هذا القبيل، ولكنَّهُ يتناولُها بلمس الحرير فلا يؤلم ولا يجرح، كوصفهِ كنيسةَ آيا صوفيا التى صارت مسجداً

كنيسةٌ صارت الى مسجدِ هـــديةُ السيّدِ للسيّدِ

ووصفهِ مدينةَ القسطنطينية وقد خرَجتْ من يدِ الروم الى يد بنى عثمان :

أدارَ محمــدٍ وتُراثَ عيسى لقــد رضياكِ بينهمــا مُشاعا
فهل نَبَذَ التعصُّبَ فيكِ قومٌ يَمُدُّ الجهــلُ بينهمــا نِزاعا

وهكذا يحترم الأديانَ ويُجلّ كُتبها :

أُرسلتَ بالتوراةِ موسَى مرشداً وابنَ البتولِ فعـلَّمَ الانجيلا
وفَجرتَ يَنبوعَ البيانِ محمداً فسَقى الحديثَ وناولَ التنزيلا

واذا وقع العيدانِ — عيد المسلمين وعيد المسيحيين — فى يومٍ واحدٍ حيَّاهما معاً أجملَ تحيّة :

العامُ أقبل قم نُحييّ هلالا كالتاجِ فى هامِ الوجودِ جلالا
عيدُ المسيحِ وعيدُ أحمدَ أقبلا يتباريان وضاءةً وجمالا
ميلادُ إحسانٍ وهجرةُ سؤددٍ قد غيَّرا وجهَ البسيطةِ حالا

واذا رأى اعتداءً من دولةٍ من دول الصليب ، فانه لا يُثير الأحقادَ الدينية القديمة ، بل يُبرِّئُ الدينَ ، ويُنحى باللائمةِ على الذين لا يتَّبعون وصاياه :

تبرَّأ عيسَى منهمُ وصِحابُهُ أأتباعُ عيسَى ذى الحنانِ جفاةُ ؟

أو يعاتِبُ ألطفَ عِتاب ويُمهّد لهُ أجمل تمهيد :

عيسَى سبيلُكَ رحمةٌ ومحبَّةٌ فى العالمين وعِصمةٌ وسَلامُ
ما كُنتَ سفَّاكَ الدماءِ ولَا أمرءًا هانَ الضعافُ عليه والأيتامُ
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورى كَثُرَت عليه باسمك الآلامُ
أنتَ الذى جعلَ العبادَ جميعَهم رَحِماً و باسِمكَ تُقطَعُ الأرحامُ
البغىُ فى دينِ الجميعِ دَنيَّةٌ والسلمُ عهدٌ والقتالُ ذِمامُ

أمَّا الحروبُ الدينيّة التى مزَّقت الانسانية فى حقبات مُختلفة فمرجِعها إلى الضلال ، والدين ينفُضُ يدَهُ منها

لولا ضلالٌ سابقٌ لم يَقُمْ   من أجلكَ الخَلقُ ولم يَقعُدِ
فكلُّ شرٍّ بينهم أو أذًى   أنت برئٌ منه طُهرُ اليدِ

ومن كانت هذه آراؤه فى الأديان ومُوحيها فلا عَجبَ أن يكونَ فى طليعة الداعين إلى اتحاد العنصرين المكوّنين للأمة المصرية

أعهدتنا والقبط إلاّ أمّةً   للأرضِ واحدةً تروم مراما
نُعلِي تعاليمَ المسيح لأجلهم   ويوقّرون لاجلنا الاسلاما
الدين للديّان جَلَّ جلالُهُ   لو شاء ربك وحّد الأقواما
هذى قبورُكم وتلك قبورُنا   متجاورينَ جماجماً وعظاما
فبحُرمةِ الموتى وواجبِ حقّهم   عيشوا كما يقضِي الجوارُ كراما

وهو يُدلّل على وجوبِ هذا الاتحاد باسم الوطن :

ألم تكُ مصرٌ مهدَنا ثم لحدَنا   وبينهما كانت لكلٍّ مغانيا
ألم تكُ من قبلِ المسيحِ بن مريمٍ   وموسَى وطَهَ نعبدُ النيلَ جاريا
فهلاّ تساقينا على حُبِّهِ الهوَى   وهلاّ فديناه ضفافاً وواديا

بل باسم الدين نفسه :

انما نحنُ ، مسلمين وقبطاً ،   أمّةٌ وُحِّدت على الأجيالِ
والى اللهِ من مشى بصليبٍ   فى يديهِ ، ومن مشى بهلالِ

ومِن نِعَم اللهِ على مصر أن هذا الاتحادَ قد توثق فيها على وجهٍ لم يتوثَّق على مثاله فى قُطر آخر. فثارت البلاد تطالب باستقلالها تحت رايةٍ رُسِم عليها الهلالُ معتنقاً الصليب. وفى ذلك يقول فقيدُنا:

مزّقتُم الوهمَ وألّفتمو أهِلّةَ اللهِ على صُلْبِهِ
حتى بَنيتم هَرَماً رابعاً من فئةِ الحقِّ ومن حزبِهِ

وهو القائل كذلك فى الصليب والهلال:

جبريلُ أنت هُـدَى السما ءِ وأنتَ برهانُ العنايَهْ
أبسُطْ جناحَيكَ اللذيـــنِ هُما الطهارةُ والهدايهْ
وزدِ الهـلالَ من الكرا مةِ والصليبَ مِنَ الرعايهْ
فَهُمَـــا لربِّكَ رايةٌ والحربُ للشيطانِ رايهْ

وله فى كلِّ ذلك حكمةٌ بالغة وهى:

الدينُ للهِ: من شاءَ الإلهُ هَدَى لكلِّ نفسٍ هوًى فى الدين يعنيها
ما كانَ مختلفُ الأديانِ داعيةً إلى اختلافِ البرايا أو تعادِيها
الكتْبُ والرسْلُ والأديانُ قاطبةً خزائنُ الحكمةِ الكبرى لواعيها
محبَّةُ اللهِ أصلٌ فى مَراشدِها وخَشيةُ اللهِ أُسٌّ فى مَبانيها
وكلُّ خيرٍ يُلَقّى فى أوامرِها وكلُّ شرٍّ يُوَقّى فى نَواهيها

تَسامُحُ النفسِ معنًى من مروءتِها بل المروءةُ فى أسمى مَعـانيها

*
* *

هذا مثالٌ من الأنغامِ الفخمةِ التى استخرجها « شوقى » من وتر الدين . وهى نَغَماتٌ ذاتُ أجنحةٍ مُصفقّة تَحْمِلها على تموُّجاتِ العواطف إلى الملايين من الناس ، فيتراجعُ صداها فى الصدور حيث تستقرُّ بردًا وسَلاماً . وهل تعرفون شعراءَ كثيرين وُفقّوا لما وفّق له شوقى : إيماناً صادقاً ، ورأياً صائباً ، وحكمةً رائعة ، وذوقاً سليماً ، مع جزالةٍ فى اللفظ وفخامةٍ فى الأسلوب ؟

*
* *

وتَر الوطن

أمّا وترُ الوطن فلم يكن بأقلَّ براعةً وحِذقاً فى النقرِ عليه ، فوطنياتُ شوقى خليقةٌ بأن تُجْمَعَ وتُدرَّسَ فى المدارسِ لتنشئةِ الطلبةِ على حُبِّ الاوطان . فهو يُقدِّس الوطنَ تقديساً ، ويتكلّمُ عن العاطفةِ الوطنيّة كعقيدةٍ دينية . أليس حبُّ الوطن من الايمان ، وهو الرجلُ المؤمنُ كما رأينا ؟

أيا وطنى لَقيتُك بعـد يأسٍ كأنّى قد لَقِيتُ بك الشبابا
ولو أنّى دُعيتُ لكنتَ دِينى عليـهِ أُقابلُ الحتمَ المُجابا(١)
أُديرُ اليك قبلَ البيتِ وجهى إذا فُهتُ الشّهادةَ والمَتـابا

(١) الحتم المجاب هو الموت

أنزَلَ الوطنَ منزلةَ الدينِ في هذه الأبياتِ وفي غيرها :

وسَلا مصرَ هل سلاَ القلبُ عنها ... أو أسَا جرحَهُ الزمانُ المؤسِّى
كلَّما مرَّتِ الليــالى عليهِ ... رقَّ ، والعهدُ فى الليالى تُقَسِّى
وطنى لو شُغِلتُ بالخُلد عنــهُ ... نازَعتْنِى إليهِ فى الخُلدِ نفسى

وهل يُستغرَبُ ممَّن ينبضُ قلبُهُ بهذه العاطفة الوطنية أنْ يجعلَ مصرَ كعبةَ أشعارِه ؟

وإنّى لَغِرِّيدُ هــذى البطاحِ ... تَغذَّى جَنــاها وسَلسَالَهــا
ترَى مصرَ كعبة أشعارِهِ ... وكلٍّ مُعلَّقــةٍ قالهــا

ويكادُ يتغزَّلُ بوطنهِ فى كلِّ موضوعٍ يُعالجهُ ، حتى فى خمرِيَّاتهِ فبينما يُنشدُ فى العيدِ طرَباً : رمضانُ ولّى ، هاتها يا ساقى إذ به يَتجهَّمُ لذكرى وطنهِ :

وطنى أسِفتُ عليكَ فى عيدِ المَلا ... وبكيتُ مِنْ وجدٍ ومن إشفاقِ
لا عيدَ لى حتى أراكَ بأُمَّةٍ ... شمَّاءَ ، راويةٍ من الأخلاقِ

نعم ، إنَّ حبَّ الوطن سجيَّةُ كلِّ حرّ

وللأوطانِ فى دم كلّ حُرٍّ ... يَدٌ سلفت ودَينٌ مستحق

يقول ذلك ويُعيدُه :

ولقد صدقتم ، هذهِ الأرضُ الهوى ... والحرُّ يَصدُقُ فى هوى أوطانهِ

ولكنَّ مصرَ أحرى من سواها من الأوطان بهوى أبنائها :

إن الذى قسمَ البلادَ حبا كمو بلداً كأوطانِ النجومِ مجيدا
قد كان ، والدنيا لحودٌ كلُّها ، للعبقريَّةِ والفنونِ مُهودا

واسمعوه بعد ذلك يُعَدِّدُ محاسنَ هذا الوطنِ فى مختلف قصائده مهما تنوعت موضوعاتها ، ويُبدِع فى وصف آثارِ مصر ما شاء الابداع ، سواء تكلَّم عن الهيا كلِ ومافيها من مدهشات الفن :

شابَ من حولها الزمان ، وشابت ، وشبابُ الفنونِ ما زال غَضَّا
ومحاريب كالبروج بَنَتْها عَزَمَاتٌ من عزمةِ الجنِّ أمضى . . .

أم تكلَّم عن أهرامِ مصر :

لكِ كالمعابد روعةٌ قُدسيةٌ وعليكِ روحانيَّةُ العبَّادِ
أُسِّستِ من أحلامِهم بقواعدٍ ورُفعتِ من أخلاقِهم بعِمادِ
قُمْ قبِّلِ الأَحجارَ والأَيدى التى أُخذتْ لها عَهداً من الآبادِ
وخُذِ النبوغَ عن الكنانةِ إنها مهدُ الشموسِ ومسقطُ الآرادِ(١)

أو عن أبى الهول

كأنَّ الرمالَ على جانبيـك وبين يديكَ ذنوبُ البشَرْ
كأنَّك فيها لِواءُ القضا ءِ على الأرضِ أو ديدبانُ القَدَرْ

(١) الآراد جمع رأد . والمراد رأد الضحى وهو وقت ارتفاع الشمس

أو عن النيل

من أيِّ عهدٍ فى القرى تتدفّقُ ... وبأى كفٍّ فى المدائن تُغدِقُ
ومن السماء نزلتَ أم فُجِّرتَ من ... عُليا الجِنان جداولاً تترقرقُ
وبأى نَولٍ أنت ناسجُ بردةٍ ... للضفّتين، جديدُها لا يخلُق...
لى فيك مَدْحٌ ليس فيه تكلُّفٌ ... أملاهُ حُبٌّ ليس فيه تملُّقُ

ولكن ما له وللتفصيل فكلٌّ ما قام فى مصرَ عجيبٌ بخلوده:

أمّةٌ للخُلدِ ما تبنِي اذا ... ما بنى الناسُ جميعاً للعفاء
تَعصِمُ الأَجسامَ من عادي البِلى ... وتقي الآثارَ من عادِى الفَناء

ومجال الفخرِ بتاريخ مصر، وما تعاقبَ فيها من جُسام الحوادث، لا يَقِلُّ اتساعاً عن مجال الفخر بآثارها الخالدة:

واخفِضْ جناحَك فى الأرضِ التى حملتْ ... موسَى رضيعاً وعيسَى الطهرِ منفطما
وأخرجتْ حكمةَ الأجيالِ خالدةً ... وبينّتْ للعبادِ السيفَ والقلما...
هذا فضاءٌ تُلِمُّ الريحُ خاشعةً ... بهِ، ويمشِى عليهِ الدهرُ محتشما

وعلماؤها الأعلامُ هم الذين نشروا نورَ التمدين فى العالم

فكانوا الشُهبَ حينَ الأرضُ ليلٌ ... وحينَ الناسُ جِــــدُّ مضلَّلينا
مشتْ بمنارِهم فى الأرضِ روما ... ومن أنوارِهم قبسَتْ أثيـــنا

وأين تاجُ الملوكِ وعرشهم من تاج ملِكِ مصر وعرشِهِ

باهِ الملوكَ بهــذا التاجِ إنَّ لهُ ... فى جوهرِ الشمسِ لافى الماس مُنْتَسَبا
وتِهْ عليهم بعرشٍ غير ذى لِدَةٍ ... من عهد (خوفو) على الماءِ استوى عَجَبا
لو استطعنا لَزِدْنا فيــهِ قائمةً ... ولاتخـذنا له أمَّ السُّها عتَبَا

وهو على هذا النحو يبسطُ تاريخَ مصر استفزازاً للهمم :

وأنا المحتفِى بتــاريخ مصرٍ ... من يَصُنْ مجدَ قومِهِ صانَ عِرْضا
لم تَمُتْ أُمَّةٌ ولا بادَ شعبٌ ... أقرضوا الذكرَ والأحاديثَ قَرضا

أَحبُّ هذا الوطنَ فى ماضيهِ حُبًّا جماً ، وقد أحبُّهُ فى حاضرِهِ حُبًّا أشدَّ . لذلك ما فَتِىءَ يدعو الى الجدِّ والنشاط فى مختلفِ ميادين العمل لاستعادة ذلك المجد الباهر :

فاضَ الزمانُ من النبوغ فهلْ فتًى ... غَمَرَ الزمانَ بعلمِــهِ وبيانهِ
أينَ التجارةُ وهى مِضمارُ الغِنَى ؟ ... أينَ الصناعةُ وهى وجهُ عَنانهِ [١] ؟
أينَ الجوادُ على العلوم بمالهِ ؟ ... أين المشاركُ مصرَ فى فدَّانهِ ؟
أينَ الزراعةُ فى جنانٍ تحتكمْ ... لخمائلِ الفردوس أو لجنانهِ ؟

---

(١) العنان بفتح العين السحاب

مرّت على مصر حِقبةٌ من الزمن كانت مقاليدُ أمورها فى غير يد أبنائها فصارتْ الى غير ما يُريدهُ أبناؤها البررَة المخلصون

أرى وطناً تحيَّر ناشــئوهُ   فما يجدون من عملٍ قِواما(١)
فلا أُسُسُ التجارةِ فيهِ قرَّتْ   ولا رُكنُ الصناعةِ فيه قاما
مدارسُ لم تُهيِّئهم لكسبٍ   ولم تبنِ الحياةَ ولا النظاما

ولذلك صارت حالة أبناءِ الذين علّموا الدنيا الفنَّ والصناعةَ الى ما يؤلم النفسَ :

تجدُ الذين بنى المسلّةَ جدُّهم   لا يُحسِنونَ لإبرةٍ تشكيلا

والآن فلننظر كيف يُريد هذا الوطن .

يُريدُهُ قبلَ كلِّ شيءٍ متحداً :

إلامَ الخلفُ بينكمو إلاما   وهذى الضجَّةُ الكبرى علاما ؟
وفيمَ يكيــدُ بعضُكمو لبعضٍ   وتُبدون العداوةَ والخصاما ؟
وأين الفوزُ ؟ لا مصرُ استقرَّت   على حالٍ ، ولا السودانُ داما

فلا قوّة إلاَّ بالاتحاد :

صوتُ الشعوبِ من الزئيرِ مُجمَّعاً   فإذا تفرّق كان بعضَ نباحِ

يُريدُ هذا الوطنَ حرًّا ، طليقاً من القيودِ التى قعدت به عن السيرِ الى الأمام :

---

(١) القوام ما يقيم الانسان

يا قوم ، هذا زَمَنٌ قد رمى ... بالقيدِ واستكبرَ عن سَحْبِهِ
لو أَنَّ قيداً جاءهُ من عَلٍ ... خَشِيتُ أن يأبَى على رَبِّهِ

يأبى هذا القيدَ ولو كان من الجُمان

شُهُدُ(١) الحياةِ ، مشوبةً ... بالرقِّ ، مثـــلُ الحنظلِ
والقيدُ لو كانَ الجُما ... نَ مُنظَّماً لم يُحمَـلِ

واذا هنَّأَ المعتقَلين السياسِيين بفكِّ اعتقالهم عاد الى حريَّة الوطن فقال :

وَجَدَ السجينُ يداً تُحطِّمُ قيدَهُ ... من ذا يُحطِّمُ للبـلادِ قيودا ؟

وكيفَ الوصولُ الى تحقيق هذه الأُمنية ؟

هناكَ فكرتان أساسيتان تعودان فى شعره ، بل قاعدتان أوليان يُريدُ أن يبنِيَ عليهما إنهاضَ الوطن وإسعادَه : الأولى العلمُ والقوَّة ، والثانية الدستور والشُّورى . وله فى كلا المعنيين ما لا نعرفُ مثلَه لشاعرٍ قبله

إنْ سرَّكَ الملكُ تَبنيهِ على أُسُسٍ ... فاستنهِضِ البانِيَين : العلمَ والأدبا
وارفعْ لها من حبالِ الحقِّ قاعدةً ... ومُدَّ من سببِ الشُّورى له طُنُبا

وترى هاتين الفكرتين مفصَّلتين فى شتى منظوماتهِ .

(١) شُهُدُ جمع شُهدة وهى العسل

أما العلمُ والقوّة فحيث يقول :

المُلكُ والدّولاتُ ما يبنى القنا والعلمُ ، لا ما ترفعُ الأحلامُ

فالسَيف والقلم سياجُ الوطن ومظهرُ شَرَفه وعزّه

ومن شَرَفِ الأوطانِ أن لايفوتَها حُسامٌ مُعِزٌّ ، أو يراعٌ مُهذّبُ

فالحسامُ المُعِزُّ هو الذى يصونُ الحقوق :

فَقُلْ لبانٍ بقولٍ رُكنَ مملكةٍ على الكتائبِ يُبنَى الملكُ لا الكتُبِ
لا تلتمسْ غَلَباً للحقّ فى أُممٍ الحقُّ عنـدهمُ معنًى من الغَلَبِ
لا خيرَ فى منبرٍ حتى يكونَ لهُ عُودٌ من السُمْرِ أو عُودٌ من القُضُبِ
وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عُدَّتِهم حتى يكونوا منَ الأخلاقِ فى أُهُبِ

واليراعُ المهذّبُ هو دواءُ النفوس :

تَرْكُ النفوسِ بلا علمٍ ولا أدبٍ تَرْكُ المريضِ بلا طبٍّ ولا آسِ

والجهلُ مَضيعةُ الحقوق :

بالعلمِ تمتلكُ الدنيـا ونَصرَتها ولا نصيبَ من الدنيـا لجهّالِ

لذلك تراه يُقدّس مُهمّة المعلّم . واذا كان بسمرك قد قال بعد حرب السبعين : « غلبنا جارتنا بمعلّم المدرسة » فان شاعرَنا يقول :

أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذى يَبنِى ويُنشِئُ أنفساً وعقولا ؟

ثمَّ يجمعُ بين القوة والعلم فيقول :

وما الحكم أن تنقضِى دولةٌ ... وتُقبِلَ أُخرى وأعوانُها
ولكن على الجيشِ تقوَى البلا ... دُ ، وبالعلمِ تشتدُّ أركانُها
فأين النبوغُ ، وأين العلو ... مُ ، وأين الفنونُ وإتقانُها

أمَّا الشُورى وأمَّا الدستور فيكاد لا يقصدُ قصيدةً إلاَّ جعل لهما منها النصيبَ الوافر ، لأنَّ :

شرُّ الحكومةِ أن يُساس بواحدٍ ... فى الملكِ أقوامٌ عِدادُ رمالهِ

ولذلك يقولُ مخاطباً توتنخ أمون :

زمانُ الفردِ يا فرعونُ ولَّى ... ودَالتْ دولةُ المتجبِّرينا
وأصبحَتِ الرُّعاةُ بكلِّ أرضٍ ... على حُكمِ الرعيَّةِ نازلينا
فؤادُ أجلُّ بالدستورِ دُنيا ... وأشرفُ منكَ بالاسلامِ دِينا

فالدستور هُدى الحكام ومفخرةُ الملوك

وجواهرُ التيجانِ ما لم تُتخَذْ ... من معدنِ الدستورِ غيرُ صِحاحِ
وخذوا بناءَ الملكِ عن دستوركم ... إنَّ الشراعَ مثقِّفُ الملاّحِ

ولذلك يُهيب بطلاب العلم أن

كونوا سياجَ العرشِ ، والتمسوا لهُ ... نصراً من الملك العزيزِ مؤزَّرا
وتفيأوا الدستورَ تحتَ ظلالهِ ... كنفاً أهشَّ من الرياضِ وأنضرا

بل إنَّ الشُّورى من الدين : قال يخاطِبُ سلطانَ تركيا منذ ربع قرن :

الرأىُ رأىُ أمير المؤمنين إذا حارت رجالٌ وضلَّت فى مرائيها
وإنما هى شُورى اللهِ جاء بها كتابُهُ الحقُّ يُعليها ويُغليهـا

هكذا أحبَّ شوقى مصرَ فى ماضيها المجيد ، وفى حاضرها المتوثِّب ، حُباً يقرب من العبادة . وهو يُحبُّها كذلك فى مستقبلها ، أى فى شبابها ، فهم معقدُ آمالها ومعقلُ رجائِها :

يا شباب الديارِ ، مصرٌ اليكم ولواءُ العرينِ للأشـبالِ
كلما روِّعَتْ بشُبهةِ يأسٍ جعلتْكم معاقـلَ الآمـالِ

وهم أبهى حلاها :

وطَنٌ يَرِفُّ هوًى إلى شُبانهِ كالروضِ رقَّتُهُ على رَيْحانهِ
هم نظمُ حِليتهِ وجوهرُ عِقدِهِ والعِقدُ قيمتُهُ يتيمُ جُمـانهِ
قلْ للشبابِ زمانكم متحرِّكٌ هل تأخذون القسطَ من دورانهِ ؟

فلا بدَّ من مجاراة الزمان فى دورانه ، ولا بدَّ من الإقدام والعمل

تحرَّكْ ، أبا الهولِ ، هذا الزما نُ تحرَّكَ ما فيه حتى الحجرْ

فشعارُ هذا العصر الاقدام

قلْ للشبابِ بمصرٍ : عصرُكمْ بطَلٌ بكلِّ غايةِ إقـدامٍ لهُ ولعُ
أُسُّ الممالكِ فيـه همةٌ وحجًى لا الترُّهاتُ لهـا أُسٌّ ولا الخِدَعُ

يُريد شبَّانَ مصر طموحين الى المعالى لا خانعين قانعين

فَغَالي فى بنيكَ الصيدِ غالي فقد حُبٌّ الغلوُّ الى بنينا
شبابٌ قُنَّعٌ لا خيرَ فيهم وبُورِكَ فى الشبابِ الطامحينا

ولكنه يُريدهم مستمسكين بالانصاف :

ربُّوا على الانصاف فتيانَ الحمى تجدوهمُ كهفَ الحقوق كهولا

متخلقين بالكرم والصفح :

كرمٌ وصفحٌ فى الشباب وطالما كَرُمَ الشبابُ شمائلاً وميولا
قوموا اجمعوا شُعبَ الابوَّةِ وارفعوا صوتَ الشبابِ محبَّبًا مقبولا

على أن يكونوا مع ذلك معتصمين بحبل الله فصوتهم عند الله مستجاب

شبابَ النيلِ إنَّ لكم لصوتاً ملبّي حين يُرْفَعُ مستجابا
فهزُّوا العرشَ بالدعواتِ حتى يُخَفِّفَ عن كنانتهِ العذابا

وهل فى استنهاض الشباب أبلغُ وأحرُّ من هذه النغمة المنبعثة من سُويداء قلبهِ

يا شبابَ الغدِ ، وابناىَ الفِدَى لكمُ ، أكرِمْ وأعزِزْ بالفِداءِ
هل يمدُّ اللهُ لى العيشَ ، عسَى أن أراكم فى الفريقِ السُعداءِ

وأرى تاجَكُمُ فوقَ السُّهى　　وأرى عرشَكمُ فوقَ ذُكاءِ
مَن رآكم قال مصرُ استرجعت　　عزَّها فى عهدِ «خوفو» و«مناء»
إنما مصرُ اليكم وبكم　　وحقوقُ البرّ أَولى بالقضاءِ
عصرُكم حرٌّ ومُستقبلُكم　　فى يمينِ اللهِ خيرِ الأُمناءِ
لا تقولوا «حطَّنا الدهرُ» فما　　هو إلاَّ من خيالِ الشعراءِ
هل علمتم أُمَّةً فى جهلِها　　ظهرَتْ فى المجدِ حسناءَ الرداءِ
فخذُوا العلمَ على أعلامهِ　　واطلبوا الحكمةَ عند الحكماءِ
واقرأُوا تاريخكم واحتفظوا　　بفصيحٍ جاءكم من فُصحاءِ
واطلبوا المجدَ على الأرضِ، فان　　هى ضاقتْ فأطلبوه فى السماءِ

هذه الأبيات قالها فى سنة ١٩١٤ وهى تُعبّرُ عن الأملِ المنشود، فاسمعوه فى سنة ١٩٢٤ يتغنَّى بالأمل المحقَّق :

يا مصرُ أشبالُ العرينِ ترعرعتْ　　ومشَتْ اليكِ من السجونِ أُسودا
قالوا : أتنظِمُ للشبابِ تحيَّةً　　تبقَى على جيدِ الزمانِ قصيدا
قلتُ : الشبابُ أتمُّ عِقدِ مآثرٍ　　من أن أزيدَهمو الثناءَ عُقودا
قَبلتْ جهودَهمو البلادُ وقبَّلتْ　　تاجاً على هاماتِهم معقودا

ترون من هذا كيف أحبَّ مصر فى مستقبلها، أى فى شبابها، وكأنى به يعتذرُ الى هذا الجيلِ الآتى عن الجيل الحاضر

إِن أسأْنا لكمُ أو لم نُسِئْ　　نحنُ هَلكَى فلكم طول البقاءِ

كما يعتذر الى الجيل الحاضر عن الجيل الماضي :

هذا جنـــاهُ عليكمُ آباؤكم　　صبراً وصفحاً فالجُناةُ كِرامُ

فان ما فينا من نقصٍ يُمهّد العذرَ للمتقدّمين :

فانّا لم نُوَقَّ النقصَ حتى　　نطالبَ بالكمالِ الأولينـا

فهل جاد وتَرُ الوطن فى قيثارة الشعر بأعلى من هذه الأنغامِ وأغلى منها ؟

وهل نبض القلبُ بأحرّ من هذه الدعوات لإذكاء نارِ الوطنية واستثارة الروح القومية ؟

وإذا كانت مصر، وآثارُ مصر ، ومدنيةُ مصر ، وعرشُ مصر ، وشبانُ مصر ، تكادُ تكون القرارَ فى جميع الحانهِ ، فإنه ما نَسِيَ ذلك الشرق العاثر :

وما الشرقُ إلاَّ أُسرةٌ أو قبيلةٌ　　تلمُّ بنيها عند كلّ مصابِ

وما غمط حقَّ قُطرٍ من الأقطار التى تربطها بمصر رابطةٌ من روابطِ الجوار :

رُبَّ جارٍ تلفّتتْ مصرُ تُو　　ليهِ سؤالَ الكريمِ عن جيرانهْ

أو روابط اللغة :

ونحن فى الشرقِ والفصحى بنورَحِمٍ　　ونحن فى الجرح والآلام اخوانُ

أو روابط الدين :

شعوبك فى شرقِ البلادِ وغربِها | كأصحابِ كهفٍ فى عميقِ سُباتِ
وهـذا زمانٌ أرضهُ وسماؤه | مجالٌ لمقـدامٍ كبيرِ حياةِ
فقلْ : ربِّ ، وفّق للعظائمِ أمتِى | وزيّنْ لهـا الأفعالَ والعزَماتِ

حتى غمر شعرهُ هذا الشرقَ فكان شريكهُ فى أفراحه ومواسيَهُ فى أتراحِه :

كان شعرى الغناءَ فى فرحِ الشر | قِ وكانَ العزاءَ فى أحزانِهْ

فيتألَّم لحالة هذا الشرق :

وانظرِ الشرقَ كيف أصبح يهوِى | وانظرِ الغربَ كيفَ أصبح يصعدْ
وتأمَّلْ ممالـكاً وبلاداً | لمسَ الدهرُ عقدَها فتبدَّدْ
كنتَ تحميه والسيوفُ عوارٍ | من لهُ اليومَ بالحسامِ المجرَّدْ

ويتوجع لتخاذُل أبنائه واستكانتهم :

متفكِّكون فما تضمُّ نفوسَهم | ثقةٌ ولا جَمَعَ القلوبَ صفاءُ
رقدوا وغرَّهمو نعيمٌ باطلٌ | ونعيمُ قومٍ فى القيودِ بلاءُ

لا سيما وهو يقابل بين الماضى والحاضر :

من مشرقِ الأرضِ الشموس تظاهرَتْ
ما بالُ مغربِها عليـه أُديلا

ولقد نظم في بغداد ودمشق ولبنان، مهنئاً أو معزياً أو مواسياً، ما قد يكون قصَّر عنه شعراء العراقِ أو الشامِ أو لبنان ولكنَّه في عواطفهِ الفيَّاضةِ على هذه البلاد الشقيقة لا ينسَى مصر:

نحنو عليكم ولا ننسى لنا وطناً ولا سريراً ولا تاجاً ولا عَلَما

أحبَّ وطنَهُ ومواطنيهِ، وحبَّبهُ وحبَّبهم إلى الجميع:

وزينبُ إنْ تاهَتْ وإنْ هي فاخرتْ فما قومُها إلاَّ العشيرُ المحبَّبُ

ومن أجلِ كلّ هذا اشتركتْ جميعُ البلادِ العربيةِ بفجيعةِ مصرَ بابنها البارّ، وعقدتْ له حفلاتِ التأبين والرثاء كأنَّ المصابَ مُصابُها. وها هي اليوم قد أوفدت أنجبَ أبنائها، من العراق، إلى فلسطين وشرق الأردن، إلى الشام ولبنان، لحمل عزاءِ الملايينِ من الناطقين بالضاد إلى اخوانهم أبناء مصر. لأنَّ شوقي الذي تغنى بشعرِه، وهو شاعرُ الإسلام، أبناء سائرِ الأديان، يدّعيه، وهو شاعرُ مصر، أبناء سائرِ الأوطان. فكان أعظمَ دعاية حيّة لمصرَ في حياتهِ وفي مماتهِ. فحقَّ له أن يزهوَ ويقولَ كما قال:

رُواةُ قصائدي فاعجبْ لشعرٍ بكلِّ محلَّةٍ يرويهِ خَلْقُ

وترُ الحكمة

وهناك وترٌ ثالثٌ شدَّهُ أميرُ الشعراءِ إلى قيثارتهِ كما شدَّهُ غيرُهُ من الشعراء . عنيتُ بهِ وترَ الحكمة ، أو الاجتماعيات . ولهُ فيه أيضاً الشيءُ الكثير ؛ ولا عجب أنْ تكثرَ الحكمُ والنصائحُ وضروبُ الإرشاد فى شعرِ من تغنَّى بالدين والوطن ؛ وقد أشار شوقى نفسُهُ إلى ذلك ، بل رأى الحكمة فناً من فنون الشعر الرئيسية :

نصيحةٌ ملؤها الاخلاصُ صادقةٌ   والنصحُ خالصُهُ دِينٌ وإيمانُ
والشعرُ ما لم يكنْ ذكرى وعاطفة   أو حكمةً ، فهو تقطيعٌ وأوزانُ

وقد امتاز بما استخرجَهُ من هذا النوع أيضاً وطبعَهُ بطابعهِ الخاص، شأنُهُ فيه شأنُهُ فى الألحانِ التى استنبطها من سائرِ الأوتار

فقد امتازت حِكَمُهُ واجتماعياتُه بسهولة معناها ورُواءِ مبناها فجمعت إلى أُبَّهةِ الحكمةِ وجلالتِها عذوبةَ الحياةِ وطلاوتها . ففلسفتُهُ فى الحياةِ فلسفةٌ باسمةٌ ، لا عُبوسَ فيها ولا تجهُّمَ فهى الحكمةُ تحملُ زهراً ؛ وهى فلسفةٌ هيِّنةٌ سهلة ، لا تصعيبَ فيها ولا تعقيد ، بل تبدو وضَّاحة المذهب ، سهلة المطلب . لا يقصد منها إلاَّ إلى العدلِ والوئام ومكارم الأخلاق .

يدعو إلى الانصاف :

فهو الذى يبنِى الطباعَ قويمةً وهو الذي يبنِي النفوسَ عدولا
ويُقيمُ منطقَ كلِّ أعوجِ منطقٍ ويُرِيهِ رأياً فى الأُمورِ أصيلا

وإلى الصبرِ لإِدراك المنى :

كم صعَّبَ اليومُ من سهلٍ هممتَ بهِ وسهَّلَ الغدُ فى الأشياءِ ما صَعُبا

وإِلى العدل فى تدبير الملك :

والعدلُ فى الدُّولاتِ أُسٌّ ثابتٌ يُفنِى الزمانَ ويُنفِدُ الأجيالا

وإلى الرفق فى سياسة الناس :

إن ملكتَ النفوسَ فابغِ رضاها فلها ثورةٌ وفيها مضاء
يسكنُ الوحشُ للوثوبِ من الأَسْرِ ، فكيف الخلائقُ العقلاء

وإلى الثبات وتعاون الأجيال :

والناسُ بانى بناءٍ أو مُتمِّمُهُ وثالثٌ يتلافَى منه ما انهدما
تعاونٌ لا يَحُلُّ الموتُ عُروتَهُ ولا يُرى بيدِ الأرزاءِ منفصما

يقولُ بالتسليمِ لإِرادةِ الله فهو صاحبُ المشيئةِ العليا :

ربِّ إنْ شئتَ فالفضاءُ مضيقٌ وإذا شئتَ فالمضيقُ فضاء

ولكنَّه يُندِّدُ بالاستسلام لخطوب الدهر :

لا تقولوا « حطّنا الدهرُ » فما هو إلاّ من خيالِ الشعراء

كما يُبرِّئُ القَدَر مما نُحَمِّلهُ من نتائج إهمالنا وتهاونِنا :

قال ناسٌ صرعةٌ من قَدَرِ   وقديماً ظَلَمَ الناسُ القَدَرْ

يُنادِي بوجوب تعليم المرأة وتربيةِ الأسرة

وإذا النساءُ نشأنَ فى أُمِّيَّةٍ   رَضَعَ الرجالُ جهالةً وخمولا
ليس اليتيمُ مَنِ انتهى أبواهُ من   همِّ الحياةِ وخلَّفاهُ ذليـــلا
فأصابَ بالدنيا الحكيمةِ منهما   وبحسن تربيةِ الزمانِ بديلا
إِنَّ اليتيمَ هو الذى تلقَى لهُ   أُمًّا تخلَّتْ أو أباً مشغولا

يرى السعَادةَ فى غيرِ ما يراه الناسُ عادةً :

فان السعادَةَ غـــيرُ الظهو   رِ ، وغيرُ الثراءِ ، وغيرُ التَرَفْ

ويرى رأىَ عنترة الذى قال :

لا يحملُ الحقدَ من تعلو بهِ الرتبُ   ولا ينالُ العلى مَن طبعهُ الغضبُ

فيقول بالمعنى عينِه :

وإنَّ للمجدِ آفاتٍ اذا جُمِعَتْ   وجدتَها أثنتين : الحقدَ والغضبا

أمَّا الحسَدُ فلا يتجهُ إلاَّ إلى الفضل :

آيةُ الفضلِ ان تُعادَى وتُحسَدْ

وأمَّا الأخلاقُ فقد أكثر من ذكرها والحثِّ عليهـا ، فبها تحيا الأمم ، وبها يسعدُ الأفراد . ولهُ فيها بيتٌ لا نعرفُ لهُ ضريعاً فى كثرة الاستشهاد بهِ : يُوردُهُ الخطباءُ فى خطبهم ، ويُضمنّه

الشعراءِ قصائدَهم ، ويُردِّدهُ الناسُ فى أحاديثهم ، بل إن مسرحاً من مسَارحِنا الوطنيةِ اتخذه شعاراً له فنقشهُ بحروفٍ كبيرةٍ فوق الملعب :

وإنَّما الأُمَمُ الأخلاقُ ما بقيتْ ... فإنْ همُ ذَهَبَتْ أخلاقُهم ذَهبوا

وقد يُعيدُ هـذا المعنى مراراً لترسيخهِ فى العقول وطبعِهِ فى النفوس . فيقول تارةً :

واذا أُصيب القومُ فى أخلاقِهم ... فأقِمْ عليهم مأتماً وعَويلا

وتارةً :

وما السلاحُ لقومٍ كلُّ عدّتهم ... حتى يكونوا من الأخلاقِ فى أُهُبِ

ومرة أخرى :

تخلَّقِ الصفحَ تسعَدْ فى الحياةِ بهِ ... فالنفسُ يُسعِدُها خُلْقٌ وَيُشْقيها

فعليها تُبْنَى الممالكُ وتشادُ :

على الأخلاقِ خطُّوا الملك وابنوا ... فليس وراءَها للعزِّ ركنُ

وبها دون سواها ترتقِي الشعوب :

وليسَ بعامرٍ بنيانُ قومٍ ... إذا أَخلاقُهم كانت خرابا

وإذا هى سلمتْ فكلُّ شيءٍ سَالم :

ولا المصائبُ إذ يُرمَى الرجالُ بها ... بقاتلاتٍ إذا الأخلاقُ لم تُصَبِ

أمَّا طريقتُهُ في النصح والارشاد فالملاينة والتلطف

آفةُ النصحِ أَنْ يكونَ لجَاجاً   وأذى النصحِ أنِ يكونَ جِهارا

ولا سيما اذا كان النصحُ موجَّهاً إلى الشبان :

قُلْ للبنين مقالَ صدقٍ واقتصدْ   ذرعُ الشبابِ يضيقُ بالنصَّاحِ

ويجب أن يُوجَّهَ النصحُ إلى العقل حيناً ، وإلى القلبِ حيناً آخر :

والنصحُ متَّهَمٌ وَإِنْ   نَثَرتَهُ كالدرِّ الشــفاهْ

أُذنُ الفتى في قلبــهِ   حيناً ، وحيناً في نُهاهْ

ويقتبس غالباً حكمَهُ ونصائحَهُ من حوادث التاريخ :

واُقرأُوا آدابَ مَنْ قَبلكم   ربَّما علَّم حياً من غَبَرْ

فالتاريخ أبو العبر ، ولا سيما تاريخ مصر :

إنَّ مصرَ روايةُ الدهرِ فاقرأْ   عبرةَ الدهرِ في الكتابِ العتيقِ

اكتفِي بهذا القدرِ من حِكَمِهِ ، ففيه وفي ما تقدَّم إيرادُهُ من هذا النوع في شعره الديني وشعرهِ الوطني ما يُغنِي عن الاسهابِ وزيادة التبسُّط للدلالةِ على أنَّ الحكمةَ قد جاءت في تضاعيفِ قصائدِهِ بلا تصنُّع ولا تكلُّف في لفظِها وفي معناها ، فهو لا يتوخَّى فيها التعمُّقَ في التحليل ولا الغوصَ في ثنايا الفكر والنفس ليظفرَ

بالحقائق ، بل يتناولها مما يخطرُ ببالِ كل انسان ، وينطقُ بهِ كل لسان ، ثمَّ ينثرُ دقائقها عفواً فى بيتٍ أو بيتين ، أو فى جملةٍ اعتراضية أو شطرةٍ من بيت ، فتجىء جليَّةَ القصد قريبةَ النفع ، كأنَّها فى روضِ شعره الثمرُ الشهىّ بين الزهرِ البهىّ ، ويجىء شعرُهُ معها غذاءً للعقولِ وريًّا للنفوس ، كما هو بهجةٌ للقارىء ونغمةٌ للسامع

* * *

الوتر المصور

وهناك أيضاً وترٌ طالما غنَّانا بما يطربُ الأسماعَ ؛ ويفتنُ الأبصارَ كذلك ، كأنَّ نغماتِهِ تتحوَّلُ ألواناً تصوِّر ، هو وتر الوصف : وصف الأشياء ووصف الأشخاص .

رأى شوقى فى حياتهِ كثيراً وعرف كثيراً فوعى كثيراً .

رأى مصرَ وآثارَها الخالدة ، رأى أوربا ومعالمها العامرة ، رأى الشامَ وجبالَها الشاهقة ؛ عاشر السلاطينَ والملوك وطاف بين كثير من الأمم والشعوب .

وكأنَّ ما كان فى عينيهِ من ارتجاجٍ عصبىّ ، جعلهما كالزئبق الرجراج ، قد ساعدَهُ على أن يستجمِعَ بلحظةِ عينٍ ما لم يرَهُ

غيرُه . فكان بنظرِه الجوّال يتناولُ دقائق المرئيات فيستوعبها في حافظتِه . وما لم يَرَهُ بأمّ عينهِ نظر اليهِ بعين خيالِه : لمحةُ عينٍ أو لمحـةُ قلبٍ كانت تكفيهِ ليطبَعَ في خاطرِهِ رسم الأشياء والأشخاص . ثمّ يجيء بكل ذلك وصفاً أخّاذاً ، وصوراً ضاحكة خلابة .

يطولُ بنا الوقوفُ عند كل ما وصف وصوّر من آثار الطبيعة وآثار البشر : مصر وكل ما فيهـا ، والاستانة ، والبوسفور ، وأيا صوفيا ، وباريس ، وغاب بولونيا ، ودمشق ، ولبنان ، والهلال ، والربيع ، والمرقص الخ . ولكنني اقتطفُ من ذلك ، على سبيل المثال ، بعضَ مقاطعَ يكادُ كلٌّ منها يكون صورةً شمسية أو لوحةً فنية دقيقةَ التفصيل ، مستكملةَ الحسن . وهكذا يتحوّل وحيُ الشعر ونَغَمُ الموسيقى ريشةً تُصوِّرُ بالألوان . وهذه هي صلةُ النسبِ بين الفنون الجميلة ، وهكذا يتحوّل هذا الباب في ديوان شوقي متحفاً عامراً ببدائع الرسم والتصوير

هل زُرتم هيكلَ أنس الوجود ، ورأيتم مياهَ النيل قد كادت تُغرقه . . ؟ وإلاّ فانظروا صورتَه في هذه الأبيات :

قف بتلك القصورِ فى اليمِّ غرقَى ممسكاً بعضُها من الذُّعرِ بعضا
كعذارى أخفينَ فى الماءِ بضًّا سابحاتٍ به ، وأبدينَ بضًّا
شابَ من حولها الزمانُ وشابت وشبابُ الفنونِ ما زال غضًّا
رُبَّ نقشٍ كأنما نفض الصا نعُ منهُ اليدينِ بالأمس نفضا
ودُهانٍ كلامعِ الزيت مرَّت أعصرٌ بالسراج والزيتُ وضَّا
وخطوطٍ كأنَّها هُدْبُ ريمٍ حسُنتْ صنعةً وطولاً وعرضا
وضحايا تكادُ تمشِي وترعَى لو أصابت من قدرة الله نبضا
ومحاريب كالبروج بنتها عزَماتٌ من عزمةِ الجنِّ أمضى

ومن لم يرَ قبرَ توتنخ آمون وما وجدَ فيه مستكشفُهُ من جواهرَ وطيوب يومَ

أفضى الى ختم الزمان ففضَّه وحبا إلى التاريخ فى محرابهِ

فلينظرْ إليهِ مصوَّراً فى هذا البيت :

وقبراً كان من حُسنٍ وطيبٍ يُضيء حجارةً ويضوعُ طينا

الأكثرون منا لم يروا الغوّاصة ولكنهم يرونها ، كما وصفها شوقى ، مرسومةً على لوحة السينما

ودبَّابةٍ تحتَ العُباب بمكمنٍ أمينٍ ، ترى السارى وليسَ يراها
هى الحوتُ أو فى الحوتِ منها مَشابهٌ فلو كان فولاذاً لكان أخاها
أبَثُّ لأصحابِ السفين غوائلاً والأمُ ناباً حين تفغرُ فاها
خَؤونٌ إذا غاصت ، غدورٌ اذا طفتْ ، مُلعَّنةٌ فى سَبْحِها وسُراها

وشاهدوا بعد ذلك فى قصيدة أو صورة أخرى كيف تُهاجِم هذه الغوّاصةُ السفينةَ وتغرِقُها :

بَعَثَ البحرُ بها كالموجِ من ... لُجَجِ السِّندِ وخُلجانِ الخَزَرْ
لَمَسَتْهـا للمقـادير يدٌ ... تلمسُ الماءَ فـيـرمِى بالشررْ
ضَرَبَتْها وهى سِرٌّ فى الدُّجى ... ليس دونَ اللهِ تحتَ الليلِ سِرْ
وَجَفَتْ قلباً ، وخارت جؤجُؤاً ، ... وَنزَتْ جنباً ، وناءت من أُخُرْ
طُعِنَتْ، فانبجستْ،فاستصرخَتْ، ... فأتاها حَينُها ، فهى خـبرْ

أمَّا وصفُهُ للطيَّارة منذ ثمانى عشرة سنة ، فلم نَقرأْ وصفاً يُدانيه لشعراءِ الأُمم التى ابتدعت هذا المركب الهوائى

نصِفُهُ طيرٌ ، ونصفٌ بشرٌ : ... يا لها إحدى أَعاجيبِ القضاءِ !.
حَمَلَ الفولاذَ ريشاً ، وجرى ... في عنـانينِ له : نارٍ وماءْ
وجنـاحٍ غيرِ ذى قادمـةٍ ... كجنـاحِ النحلِ مصقولٍ سواءْ
وذُنابى كلُّ ريحٍ مسَّهـا ... مسَّهُ صاعقةٌ من كهرباءْ
يتراءى كوكباً ذا ذنبٍ ... فإذا جـدَّ فسهماً ذا مضـاءْ
فإذا جاز الثُّريَّا للـثرى ... جرَّ كالطاووسِ ذيلَ الخيَلاءْ

واسمعوا وصفَهُ معركة « أُسترليز » التى انتصر فيها نابوليون، الملقَّب بالنسر، على امبراطورى روسيا والنمسا ، فعُرفت بمعركة

الأمبراطرة الثلاثة . وهى صورةٌ لم يَرسمْ مثيلاً لها غير فيكتور هوجو شاعرِ نابوليون

حَوْلَ أُسترليزَ كان الملتقى   واصطدامُ النسرِ بالمستنسرينْ
وُضِعَ الشطرنجُ فاستقبلتَهُ   بينانٍ عابثٍ باللاعبينْ
فإذا المَلْكانِ هذا خاضعٌ   لك فى الجمع ، وهذا مستكينْ
صِدْتَ شاهَ الروسِ والنمسا معاً   مَنْ رأى شاهَينِ صِيْدَا فى كمينْ ؟

وهذه صورة لدمشق من نوع تصوير المناظر الطبيعية :

دخلتكِ والأصيلُ له ائتلاقٌ   ووجهكِ ضاحكُ القَسَماتِ طَلْقُ
وتحت جنانِكِ الأنهارُ تجرى   وملءُ رباكِ أوراقٌ ووُرْقُ

وترى كلَّ ألوانِ الخيالِ تتسابق تحت ريشته فى وصف لبنان:

لبنانُ والخُلدُ اختراعُ اللهِ لم   يُوسَمْ بأزينَ منهما ملكوتُهُ
مَلِكُ الهضابِ الشُّمِّ سلطانُ الربى   هامُ السحابِ عروشُه وتخوتُهُ
وكأنَّ أيامَ الشبابِ ربوعُهُ   وكأنَّ أحلامَ الكعابِ بيوتُهُ
وكأنَّ ريعانَ الصبا رَيحانُهُ   سرُّ السرورِ يجودُهُ ويقوتُهُ
وكأنَّ أثداءَ النواهدِ تينُهُ   وكأنَّ أقراطَ الولائدِ توتُهُ . .

زُرتم معرضَ الصور الأخير ورأيتم فيه لوحاتٍ كثيرة تمثِّلُ نخيلَ مصر ، فهل رأيتم أبدعَ من هذا التصوير :

مآذنُ قامت هنا أو هناك ظواهرُها دَرَجٌ من شذَبْ
وليس يُؤذِّنُ فيها الرجالُ ولكن تصيح عليها الغرُبْ . . .
تخالُ اذا اتقَّدتْ فى الضُّحى وجرَّ الأصيلُ عليها اللهَبْ
وطافَ عليها شعاعُ النهارِ من الصحو أومن حواشى السُّحُبْ
وصيفةَ فرعونَ ، فى ساحةٍ من القصر ، واقفةً ترتقبْ
قد اعتصبتْ بفصوصِ العقيقِ مفصَّلةً بشذورِ الذهبْ
وناطت قلائدَ مُرجانِها على الصدرِ ، واتشحّتْ بالقصبْ
وشدَّت على ساقها مئزراً تَعقَّد من رأسِها للذَنَبْ

وزاد ، وهو ما لا يستطيعه المصوّر :

أهذا هو النخلُ مَلْكُ الرياضِ أَميرُ الحقولِ عَرُوسُ العزَب
طعامُ الفقيرِ وحلوى الغنيِّ وزادُ المسافرِ والمغترِبْ

واذا وصف هذا النخلَ فى يومٍ غائم ، قال :

والنخلُ متَّشِحٌ بالغيم تحسبهُ هيفَ العرائسِ فى بيضٍ من الأُزُرِ

واذا وصف النيل صوَّره بالألوان :

النيلُ العَذْبُ هو الكوثَرْ والجنَّةُ شاطئُهُ الأخضرْ
ريَّانُ الصفحةِ والمنظَرْ ما أبهى الخُلْدَ وما أنضَرْ
حبشىُّ اللونِ كجيرتهِ من منبعهِ وبُحيرتهِ
صَبغَ الشطَّينِ بسُمرتهِ لوناً كالمسكِ وكالعنبرْ

شوقي ونجلاهُ عليّ وحُسَين

في « الحمراء » باسبانيا قبل عودته من المنفى

فى كل ما تقدَّم يُرينا الشاعرُ هذه الموصوفاتِ رأىَ العينِ مع كثيرٍ من الرونق والرواء .

وهو يجيدُ وصفَ المعنويات إجادتَه وصفَ المحسوسَات ، فيجعلُ البعيدَ قريباً ، والغائب شاهداً ، والخفىَّ ظاهراً . كلُّكم يعرف هـذين البيتين وقد لَخَّص فيهما رواية الحبّ بجميع فصولها الطويلة :

نظرةٌ ، فابتسامةٌ ، فسلامٌ ، فكلامٌ ، فموعِدٌ ، فلِقاءُ
ففراقٌ يكونُ فيـه دواءٌ أو فِراقٌ يكون منـهُ الداءُ

واليكم تلخيص النظام الحكومىّ فى الإسلام :

فرسمتَ بعدكَ للعبادِ حكومةً لا سُوقةٌ فيها ولا أُمراءُ
اللهُ فوقَ الخلقِ فيها وحدَه والنـاسُ تحتَ لوائها أكفاءُ
والدينُ يُسْرٌ ، والخلافةُ بيعةٌ والأمرُ شُورَى ، والحقوقُ قضاءُ
الاشتراكيون أنت إمامُهم لولا دعاوى القوم والغُلَواءُ

أو ليس فى هذه الأبيات القليلة نصوصٌ وأحكامٌ مفصَّلةٌ فى عشرات الموادّ من دساتير الأمم ؟

وهذا تلخيص لضروب الحكام الذين توالوا على عرش بنى عثمان

قياصرُ أحياناً ، خلائف تارةً خواقينُ طوراً ، والفخارُ المقلّبُ

ومن الصوَر ما لا تكثُرُ فيه التفاصيل ، بل إنَّ خطوطاً قليلةً تمثّل لنا أَوفَى تمثيل ما أرادَهُ المصورِّ . وعند شوقى الكثير من هذه الصور السريعة العجلى فى بيتٍ أوشطرٍ من بيت

منها صورة المدفع عند إطلاقه :

إذا عصف الحديدُ احمرَّ أُفقٌ ... على جَنَبَاتهِ واسوَدَّ أُفقُ

وصورة فرح الجنود :

طارت قناها سروراً عن مراكزها ... وألقتِ الغمدَ إعجاباً مواضيها

وصورة الفارس المغوار (أنطونيو) فى المعركة :

قد جُنَّ تحتى جوادِى فهو عاصفةٌ ... وجُنَّ نصلى بكفِّى فهو إعصارُ

وصورة أقسام الجيش المنكسر وفراره :

لمَّا صدعتَ جناحَيهم وقلبَهمُ ... طاروا بأجنحةٍ شتَّى من الرعَبِ

وصورة أسراب الطيارات ، وهى تتضاءلُ كلَّما حلَّقت صعوداً :

ذهبَتْ تسمو فكانت أعقُباً ... فنسوراً ، فصقوراً ، فحَماما

وصورة سوق الاحسَان والبائمات :

جبريلُ يعرضُ والملائكُ باعةٌ ... أين المساومُ فى الثوابِ المشتري

وإذا وصف يدَ الضريرِ تتلمَّسُ الأشياءَ قال :

ويدُ الضريرِ وراءها عينٌ ترى

وهل أبدعُ وأروع من هـذه الصورة لاستماع الليل نداءَ المغنِّى الشجىّ :

يسمعُ الليلُ منه فى الفجرِ « يا ليـــــلُ » فيصغِى مستمهلاً فى فرارهْ

ويدخلُ فى أنغام هذا الوتَر — وتر الوصف — المدحُ والرثاء لأنهما ما خرجا عن أن يكونا وصفاً لأخلاق الناس وطباعهم ووصفاً لأعمالهم وآثارهم . وهنا كان لنقّاد شوقى مجالٌ ليؤاخذوه بتعدُّد ممدوحيه واختلافهم ، ومغالاته فى الإطنابِ بهم والإغراق فى أوصافهم ؛ فاستنكروا الأنغامَ المتضاربةَ المتنافِرة التى أخرجها من هذا الوَتَر .

أمَّا تعدُّد الممدوحين واختلافهم ، فيشفعَ بالمادح أنه توخَّى دائماً غرضاً واحداً فى مدحهم . فاذا مدح على التوالى السلطانَ عبد الحميد ، ورجالَ الاتحاد والترقى الذين خلعوه ؛ وإذا أطنب بذكر رجالِ أنقره ، بعد أن أطنب بذكر سلاطين الإستانة ، فانه قد غيَّر اسم الممدوح ولم يُغيِّر مقصدَهُ من المدح ؛ أو إن شئتم قولوا إنه بدَّل العنوانَ ولم يُبدِّل ما تحت العنوان . فهو دائماً

يطالِبُ ممدوحَهُ بالإصلاح ، ونشر الثقافة والعلم ، وإقامة العدل ، وبناءِ الملك على الشورى والدستور . ولقد قلنا فى غير هذا الموقف(١) إنَّ الشاعرَ شاعرٌ أيًّا كان الرويّ الذى يختارهُ لقصيدته ما دامت نفسهُ حسَّاسة ، وقريحتهُ فيّاضةً بالشعور . وهل اسم الممدوح فى شعرِ شوقى سوى الرويِّ . وهو القائل :

« ولى غُرَرَ الأخلاق فى المدح والهوى »

أمَّا مغالاتهُ فى هذا النوع من الوصف ، ووضعُهُ الرجالَ الذين يصفهم — مدحاً أو رثاءً — فوقَ عامَّةِ البشر، فانه يرجعُ الى وصفهِ الناسَ كما يجبُ أن يكونوا، لا كما هم . ولهذا المذهبِ الأدبيّ أنصارُهُ، وحاملُ لوائهِ الشاعرُ الفرنسيُّ « كورنيل » فى رواياتهِ التمثيلية . ونقيضُهُ فيه معاصرهُ الشاعرُ « راسين » . فقالوا إنَّ الأول صوَّرَ أبطالَ رواياتهِ كما يجبُ أن يكونوا ؛ والثانى صوّرهم كما هم . لذلك نعجبُ بأبطالِ الأول، ولكننا نحبُّ أبطالَ الثانى . ولذلك أيضاً يرتاحُ الكثيرون الى مدائِحِ شوقى لأنها تحبّبُ الى الممدوح الصفاتِ التى قد لا تكونُ فيه فى حين ينبغى أن يكونَ متحلياً بها ، كما أنها تحبّبُها الى سائرِ الناس ، فتجىءُ

(١) راجع البحث بهذا الموضوع صفحة ٧

من هذه الناحية دعوةً الى الكمال النفسي ومكارم الأخلاق .

ولقد أشار شوقى الى مذهبه فى المديح حيث قال :

يُظهِرُ المدحُ رونقَ الرجلِ الما　　جدِ كالسيفِ يزدهي بالصقالِ
رُبَّ مدح أذاعَ فى الناس فضلاً　　وأتاهم بقـــدوةٍ ومثال
وثنـاءٍ على فتًى عمَّ قوماً　　قيمةُ العقدِ حسنُ بعضِ اللآلى

وعلى كلٍّ فانَّ ما تضمنته المدائحُ الشوقية من النصائح والحكم والإرشادِ ومطالبةِ الممدوح بما نرتاحُ اليه ونريدُهُ أن يكونَ عليه لممَّا يسيغُ إغراقَهُ وغلوَّه .

واذا كان قد مدح الكثيرين ممَّا حملَ البعضَ على اتّهامِهِ فى اخلاصه وصحّةِ اعتقاده فى مديحهِ ، فانَّ الذين رثاهم ، مخلصاً لهم بعد مماتهم ، أوفرُ عدداً ، حتى أن مراثيه لتؤلِّف جزءاً كاملاً من ديوانهِ ، وهذا دليلُ الوفاء ، والبرِّ بالأصدقاء . يؤيِّدُ ما نقولُ أن أحدَ وزراء مصر كان قد أتى عملاً لا يتفقُ وصدق الوطنية فندَّد شوقى بهذا العمل فى أحدى قصائده . ولكن لما تُوفِّيَ ذلك الوزيرُ رثاه شوقى رثاءً بليغاً ، وأشار الى فعلتهِ السابقة إشارةً لطيفةً ، فقال :

أخذتُك فى الحياةِ على هناتٍ　　وأىُّ الناسِ ليسَ لهُ هناتُ

فصفحاً فى التراب إذا التقينا ولُوشِيَتِ العداوةُ والتراتُ
خُلِقتُ كأنّى عيسَى ، حرامٌ على قلبى الضغينةُ والشماتُ

*
* *

الوتر الخاص

وهناك وترٌ خامسٌ فى قيثارة شوقى متنوعُ الأنغام ، أُسمّيه من باب التعميم وترَ الشاعرِ الخاص ، المشدودَ إلى نياط قلبهِ ، المتّصِلَ بدقائق شعوره ، الناطقَ بخفىّ وجدانه . نعم إنَّ ما نظمَهُ فى الدينِ والوطنِ والاجتماعيات والوصفِ صادرٌ عن شعورٍ عميق ، كما رأيتم فى كثيرٍ مما أوردنا من شعره فى هذه الأبواب ، ولكنّ قوّتَى النفس المتغلّبتين فى تلك الأنواع من النظم هما العقلُ والخيال . أمّا الشعورُ الخاص ، وأما العاطفةُ النفسية ، فتظهران فى شعرهِ الليريقى أو الغنائى ، فى الغزَلِ والنسيب ، فى مناجاتهِ عهدَ الصبا ، فى بسمته لأولاده وَحَفَدَتهِ ، ودمعتهِ على آبائهِ وأجداده ، وتبسُّطه مع خلاّنهِ وأحبابه . . . فهناك عواطفُ الحنان ، ولواعجُ الأشجان ؛ وهناك خفقانُ الجوارح ، ونبَضاتُ الفؤاد

ولكن هنا أيضاً رأى النقّادُ مجالاً للمؤاخذة : فهذا النوعُ ، فى نظرهم ، قليلٌ فى شعر شوقى ؛ وهو ، على قلّتهِ ، من النوع العادىّ المطروق .

أمّا قلّتُهُ فقلّةٌ نسبيّةٌ ، أى بالمقارنة بكثرة ما نظم ؛ ولكن هذا القليل النسبي فى الحقيقة كثيرٌ ، يُؤلفُ وحده ديواناً كاملاً

وأمّا رميُهُ بالابتذال ، فقد يكونُ مرجعهُ إلى أنَّ شوقى لم يعمِدْ إلى تحليلِ عواطفِ النفس وميولِها وأهوائِها تحليلاً دقيقاً. فقد رأينا أنَّ فلسفتَهُ فى اجتماعياتهِ فلسفةٌ سهلةٌ خاليةٌ من التعقيد . وكذلك جاء وصفُهُ لتلك العواطف والاهواء وصفاً طبيعياً ، خالياً من الايغال فى التفصيل والتعمّق فى التحليل . وقد أعلن ذلك هو نفسُهُ بألطف أسلوب يوم طُلِبَ إليه فى بعض مجالس الأدب أن يشطِّر بيتاً للبها زُهير ، فقال على البديهة :

يقولُ أُناسٌ : لو وصفتَ لنا الهوى   لعلَّ الذى لا يعرفُ الحبَّ يعرفُ
فقلتُ : لقد ذقتُ الهوى ، ثمّ ذُقتُهُ   فواللهِ لا أدرى الهوى كيف يوصفُ

وهو يعودُ إلى ذلك المعنى فيقول :

مُستَهامٌ فى هواهُ مُدْنَفٌ   يترضَّى مُستهاماً مُدْنفَا
يا خليلىَّ ، صِفَا لى حيلةً   وأرى الحيلةَ أن لا تَصِفا

وخلاصةُ القول إنَّ الهوى هو ما يشعرُ به والسلام

وعنـدِى الهوى موصوفُهُ . لا صِفاتُهُ
إذا سألونى : ما الهوى ؟ قلتُ : ما بيا ...

وعند هذا الحدّ تقفُ قوّةُ البشرِ فى عرفهِ :

صُونى جمالَكِ عنا إننـا بَشَرٌ — من الترابِ ، وهذا الحسنُ روحانى

وهو فى غزَلهِ ، على وجه الإجمال ، لا يخرجُ عن المعروف المألوف قديماً عند الشعراء من وصفِ طولِ الليل ونواح الطير ، والدمع والزفرات ، والشباب والمشيب ، والعيون والقلوب ، والخدود والقدود ، والكناية بالدرّ عن الثغور ، وبحلوكة الليل عن سواد الشعور . . . تشابيهُ وكناياتٌ واستعاراتٌ قديمةٌ ؛ ولكنَّهُ يكسوها شيئاً من الجِدَّة بالقالب الذى يُفرغها فيه :

يا ثغرَها ، أمسيتُ كالغــوّاصِ أحـلُمُ بالجواهرْ
يا لحظَها ، مَنْ أمُّها أو مَنْ أبوها فى الجآذرْ
يا شَعرَها ، لا تسعَ فى هتكى ، فشأنُ الليلِ ساترْ
يا قدَّها ، حتّامَ تغـــدو عاذلاً وتروحُ جائرْ
وبأىّ ذنبٍ قد طعنــتَ حشاىَ يا قدَّ الكبائرْ

وإذا تكلّم عن قلبهِ ، قال كغيرهِ من الشعراء إنَّه خفق فى ضلوعهِ وسَال فى دموعه؛ ولكنه يُجدّد المعنى بالمقاربة بين الضدَّين:

تسرَّبَ فى الدموعِ فقلتُ وَلَّى — وصفَّق فى الضلوعِ فقلتُ ثابا

ومع ذلك فكثيراً ما نسمعُ لقلبهِ نبضةً خاصةً عند ما يضرب على هذا الوتر متألماً ، فيحرِّكُ أوتارَ القلوب ، كقولهِ يُناجى من منفاه أحبابَهُ وعهدَه الماضى فى وطنهِ :

بالله يانَسماتِ النيلِ فى السَحَرِ هلْ عندَكُنَّ عنِ الأحبابِ من خَبَرِ
هِجتُنَّ لى لوعةً فى القلبِ كامنةً والجرحُ إن تَعترِضْهُ نسمةٌ يَثُرِ
ذكرتُ مصرَ ومن أهوى ومجلسَنا على الجزيرةِ بين الجسرِ والنَّهَرِ
وما شجانىَ إلَّا صوتُ ساقيةٍ تستقبلُ الليلَ بين النوحِ والعِبَرِ

لا تجيشُ بين ضلوعهِ تلك العواطفُ الثائرةُ المتمرِّدةُ تنبعث انبعاثَ الحِمِ المتَّقِدة من البراكين ، وان كان يقول :

ناقوسُ القلبِ يدقُّ لهُ وحنايا الأضلُعِ معبدُهُ

بل إنَّ العواطفَ التى تفيضُ من قلبهِ عواطفُ هادئةٌ هنيّة ، تسيلُ كجدولِ الماءِ المترقرق؛ فهو يدعو عادةً إلى الرأفةِ وكَرَمِ الطباع :

إنَّ الشجاعةَ فى الرجالِ غلاظةٌ ما لم تَزِنْهــا رأفةٌ وسخاء

فسبيلُ القلوب خيرُ السُّبُلِ :

يا مالكاً رقَّ الرقابِ ببأسِهِ هلَّا اتَّخذتَ الى القلوبِ سبيلا

وأمَّا الإحسان فهو عنوان الانسانية :

المحسنونَ همُ اللبــابُ وسائرُ الناسِ النُّفَايَهْ

يطلبُ الثوابَ للمحسنِ ، فقيراً كان أم غنياً :

جبريلُ هلِّلْ فى السماء وكبِّرِ   واكتبْ ثوابَ المحسنينَ وسطِّرِ
سَلْ للفقيرِ على تكرُّمِهِ الغنى   واطلبْ مزيداً فى الرخاء لموسرِ

ويطلب من المحسن إليه مقابلةَ الاحسانِ بالشكران :

هل ترى أنتَ ؟ فانى لم أجدْ   لجميلِ الصنعِ بالشكرِ اقترانا
واذا الدنيا خَلَتْ من خيرٍ   وخلت من شاكرٍ هانَتْ هوانا

يعرفُ مريديهِ وخصومَهُ :

اللهُ يعلمُ ما نفسى بجاهلةٍ   مَنْ أهلُ خلّتِها ممن يُعاديها

ولكنه يُحِبُّ الترفُّقَ والمداراة :

تغابيتُ حتى صحبتُ الجهولَ   وداريتُ حتى صحبتُ الحسودْ

يذهبُ مذهبَ زُهيرِ بن أبى سُلمى القائل :

ومَنْ لم يصانعْ فى أمورٍ كثيرةٍ   يُضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بمنسِمِ

فيقول :

ومن لم يُقِمْ ستراً على عيبِ غيرهِ   يَعِشْ مُستباحَ العرضِ منهتِكَ السِّترِ

وهو لذلك لا يُضمِرُ ضغناً ولا يحملُ حقداً :

سُحِبَتْ على الأحقادِ أذيالُ الهوَى   ومشَى على الضغْنِ الودادُ الماحى

وإذا اختلفت الآراء فانَّ اختلافَها ينبغى ألاَّ يتسرَّبَ إلى القلوب . قال فى إحياءِ ذكرى قاسم امين :

لقد اختلفنا والمُعـــا   شِرُ قـــد يُخالفهُ العشيرْ
فى الرأى تضطغِنُ العقو   لُ وليسَ تضطغِنُ الصدورْ

أمَّا القولُ ، حَسُنَ أو سَاءَ ، فهو مرآةُ النفس :

والقولُ ان عفَّ أو سَاءَت مواقعُهُ   صدى السريرةِ والآدابِ يحكيها

وعلى كلٍّ فهذه فطرته :

فطرتى . لا آخـــذُ القلبَ بها   خُلِقَ الشاعرُ سمحاً طَرِبا

أمَّا برُّهُ بآبائهِ ، وحَدْبُهُ على أولادهِ فمثال عاطفتَى الأبوَّة والبنوَّة :

يلتفتُ إلى الماضِى فيُثيرُ منه ذكرياتٍ ضاحكةً ، أو باكية ؛ قال فى جدته :

لِى جَدَّةٌ ترأفُ بى   أحنى علىَّ من أبى
وكلُّ شىءٍ سرَّنى   تذهبُ فيــه مذهبى
إن غَضِبَ الأهل علىَّ   كلُّهمْ ، لم تغضبِ
مشى أبى يوماً إلىَّ   مشــيةَ المؤدِّبِ
غَضْبانَ قـــد هدَّدَ بالضَّـــربِ ، وإن لم يَضْرِبِ

فلم أَجِدْ لى منــــهُ غَيرَ   جَدَّتى مِن مَهْرَبِ
فجعلَتْنى خَلفَهَـــا   أنجو بهـــا وأختبى
وهى تقــولُ لأبى   بلهجـــةِ المُؤنِّبِ :
وَيحَ له ! وَيْحَ لهـذا   الوالدِ المُعــــذِّبِ !
ألم تَـكُن تَصْنَعُ ما   يَصْنَعُ إِذْ أَنتَ صَبى ؟

وقال فى رثاءِ والدهِ ، وقد أفضى إلينا مراراً أنها من قصائدهِ المفضّلة فى نظره :

أنا مَن ماتَ ومَنْ مات أنا   لقىَ الموتَ كلانا مرَّتَينْ
نحنُ كنَّا مهجةً فى بدنٍ   ثمَّ صِرنا مهجةً فى بدنَينْ
ثمَّ عُــدنا مهجةً فى بدنٍ   ثمَّ نُلقَى جثةً فى كفنينْ
ثمَّ نحيَا فى (علىٍّ) بعدنا   وبهِ نُبعَثُ أُولى البعثتين
انظرِ الكون وقلْ فى وصفهِ :   كلٌّ هذا أصله من أبوين
فقدا الجنــة فى إيجادِنا   ونَعِمْنـا منهما فى جنَّتين
ما أَبِى إلَّا أَخٌ فارقتهُ   ودُّهُ الصدقُ، وودُّ الناسِ مَينْ
طالمـا قمنـا إلى مائدةٍ   كانتِ الكسرةُ فيها كسرتين
وشربنا من اناءٍ واحدٍ   وغسلنا بعد ذا فيه اليدَين
وتمشَّينا يدِى فى يدِهِ   من رآنا قال عنا أَخوَين
واذا متُّ وأُودعتُ الثرى   أَنُلقىَّ حفرةً أم حفرتين . . ؟

« ثمَّ نحيا في عليٍّ بعدَنا . . . . » هكذا بعد أن بكى نفسَهُ في أبيهِ الراحـــل ، يراها تُبعَثُ في ابنهِ الناشئ ، فيقول في نجلهِ « عليّ » :

وأنتَ مني كروحي   وأنتَ مَنْ أنتَ عندي

فينصرفُ الى مناغاةِ أولادِهِ ، وكأنَّهُ يحوطهم بشعرهِ كما يحوطهم بحنانهِ وبرِّه . فاذا مرض نجلُهُ « حسين » ، مرِض معه ، وعُوفِيَ معه :

جرحُهُ كان بقلبي ، يا أباً(١)   لا أُنبِّيـهِ بجرحي كيف كانا
لطفَ اللهُ فعُوفينـــا معًـا   وارتهنَّا لكَ بالشكرِ لسانا

واذا وصف كريمتَهُ الطفلةَ ، قال :

كم خفق القلبُ لهـا   عند البُكا والضَّحِكِ
فإن مشتْ فخاطرِي   يسبقُها كالمسكِ

فاخر أميرُ الشعراءِ وباهى بشعرهِ في الدين والوطن والحكمة ، فقال تارةً :

وإني لطيرُ النيـلِ لا طيرَ غيرهُ

(١) الخطاب موجه الى الجرّاح الأكبر علي باشا ابراهيم

وتارةً :

إذا قُلتُ شعراً فالقوافِي حواضرٌ

ولكننا نراه أكثرَ تواضُعاً في هذا الباب ؛ كأنَّهُ في ما أخرجَهُ من نغماتِ هذا الوتر الخاص ، غزلاً ونسيباً ووصفاً لنفسيّاتهِ في مظاهرِها المنوَّعة ، يشكُّ في صحَّةِ تعبيرهِ عن حقيقةِ شعوره ولواعج قلبه ، فيتساءلُ :

يا ليتَ شعريَ هل قلتُ الذي أَجِدُ   والشعرُ دمعٌ ووجدانٌ وعاطفةٌ

قال أحدُ شعراءِ الفرنجةِ : « إن أبدعَ أشعاري هي التي في خاطري لم أنظمها » وقال شوقي :

قد عرفنا لهُ ، ولا مُستقرّا   هو لحنٌ مُضيَّعٌ ، لا جواباً
ظلَّ في خاطرِ الملحِّنِ سرّا   لك في طيّهِ حديثُ غرامٍ

*
* *

وفي قيثارةِ الشعرِ وترٌ ضربَ عليه الكثيرون من الشعراء ؛ فلم يُوفقوا في الغالبِ إلاَّ لاستخراج أصواتٍ منكرةٍ ، مجوناً وهجاء . وقد قطعَ شوقي هذا الوتر من قيثارتهِ . فكان عَفَّ الإلهام كما كان عَفَّ اللسان . حتى لتستطيع أن تُلقِي بديوانهِ جملةً بين يدَي العذراءِ في خدرها ، تطالعهُ فلا تجد فيه ما يحمَرُّ

لهُ وجهها خجلاً . وقد قال المرحوم اسماعيل صبرى باشا — وهو من كنا نلقبهُ باستاذ الشعراء — فى تقريظه « الشوقيات »

مرحباً بالمقالِ سمحاً كريماً لم يشُبْهُ هجوٌ ولا إيذاء

وقال شوقى نفسه فى أدَبِ السير والحديث

وكُنْ فى الطريقِ عفيفَ الخُطى ، شريفَ السماعِ ، كريمَ النَّظَرْ

وقد طبَّق هذه القاعدةَ على شعرهِ ، فخلت قيثارتهُ من وتَر المجون والهجاء ، مكتفياً بالأوتار الأخرى التى تغنَّى عليها ، وقد جمعها فى قوله :

والشعرُ ما لم يكنْ ذكرى وعاطفةً أو حكمةً ، فهو تقطيعٌ وأوزانُ

فنظم فى سلك قصائدهِ ذكرى الماضي ، وعاطفةَ الحاضر والمستقبَل ، والحكمةَ الخالدةَ المشتركةَ بين كل زمان ؛ هذا هو الشعرُ لا تقطيع وأوزان

*
* *

نقفُ عند هذا الحدّ من عَرْضِ الأنغام التى بعثها شوقى من قيثارةِ الشعر . ولو رجعتم الى دواوينهِ ورواياتهِ لوجدتم الكثيرَ ، غير ما استشهدنا بهِ ، ممّا كان يصحُّ إيرادُهُ على سبيل

الاستشهاد : فهناك منجمٌ من الالماس غنيٌّ، مهما نغترفْ منه يبقَ فيه القدرُ الوفير. فقريحةُ شوقى قريحةٌ خصبةٌ جوَّادةٌ فيَّاضة ، امتدَّت شِباكها الى مختلِفِ الحوادث والشؤون ، فعادت منها بكرائمِ المعانى فى حرائرِ الألفاظ ؛ فكان شعرُهُ بجملتهِ سِجلاً للتاريخ قديمهِ وحديثهِ : نظمَ الكثيرَ من وقائع التاريخ القديم شعراً نخماً ، رصَّعهُ بالمواعظِ والعِبَر . ودوَّنَ معظم حوادثِ التاريخ الحديث فصوَّر أبطالَها تصويراً يخلِّدُ منهم الأثر . فكان له القدحُ المعلَّى فى الشعر السياسى والشعر القصَصىّ. أما قالوا قديماً إنَّ الشعراءَ حَفَظَةُ الآثار، ونَقَلَةُ الأخبار؟ وكثيراً ما عمد الى التاريخ يتخذُهُ منبراً ، فيقف على أعوادهِ معلِّماً أو منذراً : « ربَّما علَّم حيًّا مَنْ غَبَرْ »

ولقد كنا نتمنَّى أن تُشرَح قصائدُهُ شرحاً تاريخياً يشتمل على بسط ما فيها من عوامل السياسة ومن الإشاراتِ الى حوادثِ عصرهِ لئلَّا تفوتَ مراميها من يطالعُها فى آتِى الزمن .

وكان شوقى كثيرَ المطالعة والدرس ، يُمهِّدُ بهما لما يُريدُ نظمهُ.

خذوا مثلاً قصيدتَهُ فى « شكسبير » وقصيدتَهُ فى « أرسطو » تجدوا فيهمـا خلاصةَ مطالعةٍ دقيقـة لروايات شاعرِ الانجليز وفلسفةِ حكيم الأغارقة . ويبدو أثرُ هذا الاطلاع الواسع حتى فى القصائدِ التى كانت بنتَ يومِها ؛ فانَّه كان يُغذِّيها بما ادَّخره فى خاطرِهِ من قبل

وعلى هذا المنوالِ كان يتخيَّر موضوعَهُ فيحتضنهُ يوماً أو شهراً فى ذهنِهِ ، فيكسو المعانى وشيَ الكلامِ فى فكرِهِ ، ثمَّ يُمْلى قصيدتَه بألفاظٍ كيِّسة ، عَذبةِ الإيقاع ، منسجمةِ الاتسَاق ، فكأنَّه لا يُعبِّر عن معانيه تعبيراً ، بل يُغنِّيها غناءً يتملَّكُ اللبَّ ويستولِى على الشعور ، حتى انه كثيراً ما تُنسينا طلاوةُ الألفاظ وحُسنُ توقيعِها فى التركيب دقائقَ المعنى وبدائعَ التفصيل ، فيتزلَّفُ نظمُهُ الى الآذان فيُطربُها كما تُطربُ الألحان ، ويُحدِثُ فى القلوب نشوةً كنشوةِ بنتِ الحان . وكم له من القصائد تستهوِى السامعَ دون تعليل هذا الاستهواء ، فاذا طُلِب اليه أن يتخيَّر منها بيتاً أو مقطعاً ما درَى ما يختار . وكم رأينا من الذين لا يتذوَّقون الشعر يطرَبون لشعر شوقى طرَبَهم للموسيقى ،

وهم فى ذلك على حدِّ قول أبى تمام :

رَوَت كبدِى فلم أَجهلْ شجاها ... ولم أَفهمْ معانيها ولكن

أمَّا جودُ قريحتــــهِ فيتجلَّى فى كثرة ما نظم ، وفى طَرْقِهِ الموضوعَ الواحدَ فى أكثر من قصيدة ، وهو فى كلِّ مرَّةٍ يجىء بالطريف الجديد ، كما يتجلَّى هذا الخصبُ فى مدَى العشرات من قصائدِهِ التى تؤلِّف رواياتٍ كاملة . فما كان ينتهى من قصيدةٍ حتى يُعالِجَ غيرَها ، وكأنَّهُ قد نَسِيَ الأُولى . فكان خاطرُهُ كالروضِ فى الربيع يجودُ بالزهرِ متتابعاً ، ويُنضِجُ الثمرَ متعاقباً ، أو كالبلبل يتوالى تغريدهُ

نَغَمٌ فى السماءِ والأرضِ شتَّى ... من معانى الربيعِ ، أو أَلحانِهْ .

فانقاد لهُ النظمُ وأسلس قيادَه ، وجرى الشعرُ على لسَانهِ مجرى الكلام فتكادُ لا تقرأُ من نثرهِ بضعةَ أسطرٍ حتى تجد بيتاً أو شطراً ، فحقَّ له أن يقولَ :

« إذا قلتُ شعراً فالقوافى حواضرٌ »

كما قال قديماً الشاعرُ اللاتينى أوفيد :

« كلُّ قولٍ حاولتُهُ كان شعراً(١) »

---

(١) Quidquid tentabam dicere versus erat. (Ovide)

ومن مظاهر هذا الخصب في القريحة واستنباط المعاني أنه طرق أبعَد الموضوعاتِ عن الشعر فاستخرج منها شعراً طيِّباً ، كالنحلة تشتار عسلَها من جميع أنواع الزهر ، من ذلك قوله في طابع البريد :

ويُوافِي النفوسَ مني رسولٌ   لم يكن خائناً ولا نمَّاما
يحْمِلُ الغشَّ والنصيحةَ ، والبغضاء والحُبَّ ، والرضى والآلاما
ويعِي ما تُسِرُّهُ من كلامٍ   ويؤدِّي كما وعاهُ الكلاما
ولقد أُضحِكُ العبوسَ بيومٍ   فيهِ أُبكِي المنعَّمَ البسَّاما
وأُهنِّي على النوى وأُعزِّي   وأُفيدُ الحرمانَ والإنعاما

وقوله في وصف يدِ الطبيبِ الجرَّاح :

مدَّها كالأجَلِ المبسوطِ في   طَلَبِ البُرءِ اجتهاداً وافتنانا
تجِدُ الفولاذَ فيها مُحسناً   أخذَ الرفقَ عليها والليانا
لم تَخِطْ للناسِ يوماً كفناً   انما خاطت بقاءً وكيانا

ولما أُعلن ، عند إنشاء بنك مصر ، أن ستُنشَد في الاحتفالِ قصيدةٌ لشوقي ، سمعنا الكثيرين يقولون : « أين مجالُ الشعرِ مع ورَق النقد والمال ؟ وأيُّ مرتعٍ في المادة للخيال ! » ولكنَّ شاعرنَا عرف أن يستنبطَ من المادَّة مثلَ هذه الأبيات :

بالعلمِ والمالِ يبني الناسُ ملـكهمُ ... لم يُبنَ ملكٌ على جهلٍ و اقلالِ
هاتوا الرجالَ وهاتوا المالَ واحتشدوا ... رأياً لرأيٍ ومثقـالاً لمثقـالِ
هذا هو الحجَرُ الدرّيُّ بينكمو ... فابنوا بناءَ قُرَيْشٍ بيتَها العالى
دارٌ إذا نزلت فيهـا ودائعُـكم ... أودعتمُ الحَبَّ أرضاً ذاتَ إغلالِ
آمالُ مصرٍ اليهـا طالما طمَحَتْ ... هل تبخلون على مصرٍ بآمالِ

فاذا كان قد جارَى القدماءَ وحذا حذوَهم فى صياغةِ الشعر وفى طرازِ مطالعهِ وأسلوب مقاطعه ، فقد رأيتم كيف راض بحورَ القريضِ على اداءِ المعانى الجديدة ومعالجةِ الموضوعات العصرية . ولذلك قلنا فى مستهلِّ هذا البحث إنه لم يشدَّ الى قيثارة الشعر وتَرَاً جديداً ، ولكنّه استخرج من الأوتارِ التى ضرب عليهـا غيرُه من الشعراءِ أنغاماً مستجدَّةً عذبةَ المستمع . ولقد رأينا أَمثلةً كثيرةً على ذلك فى ما استشهدنا به لهُ من الأبيات . وكثيراً ما أصبح القديمُ جديداً بفضلِ ما اكسبه من جمال اللفظ والتركيب ، وروعة المعنى الذى ظهر بمظهر التجديد .

ولم يذهلْ شوقى عن هذا التجديد الذى شغف به الكثيرون فاتخذوه لهم شعاراً ، قال :

طلعوا على الوادى برايةِ عصرِهم ... ولكلِّ عصرٍ رايةٌ وشعارُ

ولكنه أراد هذا التجديدَ مقروناً بالأناة والتُّؤَدَة :

ومع المجدِّدِ بالأناةِ سلامةٌ ومع المجــدِّدِ بالجماح عثارُ

فان فى الداعين الى هذا المذهب من لا يفهمهُ إلاَّ قائماً على الهدمِ والتقويضِ ، وليس لديهم شىءٌ من مُعدَّاتِ البناء والتشييد . فعلى مثل هذه الطائفة يحملُ الحملةَ الشديدة :

لا تحذُ حذوَ عصابةٍ مفتونةٍ يجدونَ كلَّ قديمٍ شىءٍ مُنكرا
ولو استطاعوا فى المجامع أنكروا من مات من آبائهم أو عمَّرا
من كلّ ماضٍ فى القديمِ وهدمهِ واذا تقــدَّم للبنايةِ قصَّرا
وأتى الحضارةَ بالصناعةِ رثَّةً والعلمِ نزراً والبيانِ مثرثرا

٭
٭ ٭

بسطنا فى ما تقــدَّم صورةً لأميرِ الشعراءِ اقتبسنا الألوانَ والخطوطَ اللازمةَ لرسمِها من أقوالهِ وتحليــلِ شاعريتهِ وبيانِ مُميِّزاتها . وإذا كان هناك من نقصٍ أو عيب ، فالذنبُ ذنبُ المصوّر لا ذنب الأصل . ولقد تكون هذه الصورةُ أكملَ دلالةً وأَجلى رونقاً إذا قارنّاها بغيرها . فقد فُطِرَ الإنسانُ على حبِّ المقارنةِ فلا يُدركُ كُنهَ الأشياءِ إلَّا عن طريقها . وهذا صحيحٌ فى المعنويات صحّتهُ فى الماديات . وقد نكونُ أكثرَ من

سوانا شغفاً بذلك عند ما نتكلّمُ عن أُدبائِنا وشعرائنا : فكلُّ أديبٍ أو شاعرٍ في نظرِنا يَمتُّ بنسبٍ إلى أحد الأدباء الأقدمين ؛ وما كَتب أحدٌ عن شوقي إلّا قارنه بأَحد أعلام الشعر الغابرين : فهو وأبو تمام في حسن الديباجةِ نظيران ؛ وهو وجرير في براعة التمدّح بالأمراء صنوان ؛ وهو والمتنبي في الحكم كفؤان ؛ وهو وابن هانئ في الفصاحة مِثلان ، ألم يُطلق اسمهُ على داره ؟ وهو والبحتريُّ في جودة الصناعة ندّان ، ألم يقل هو نفسهُ عن نفسهِ :

ان الذى قد ردّها وأعادَها   في بردتيك أعادَ فيَّ البحترِى

وقد أعاد ذلك في معارضتهِ لإِحدى قصائد صبرى باشا :

وتعارضتْ فيك القرائحُ وانبرى   لأبي نواسَ البحتريُّ المفلِقُ

ولا شك أن في شعره شيئاً من جميع هؤلاء[1]

وقد تخطّى بعضُ البحّاث أُدباءِ العربِ إلى أُدباءِ الفرنجةِ فرأوا فيه من فيكتور هوجو ولامَرتين وألفرد ده موسّه ، وهم أمراءِ الشعرِ في فرنسا يوم كان شوقي يطلبُ العلمَ في باريس

وإذا كان قد حذا حذوَ هؤلاء وأولئك من شعراءِ الشرقِ

---

(١) ترى فيه من نسج البحترى ، ومن صياغة أبي تمام ، ومن وثبات المتنبي ، ومن مفاجآت الشريف ، ومن مسلسلات مهيار (خليل مطران)

والغرب فى بعض مناحِى النظم ، فإنه يكاد يكون فى مظاهرِ حياتهِ وشاعريته صورةً أمينةً لشاعر عريقٍ فى القِدَم ، عاش منذ أربعة وعشرين قرنًا ، وفى بلدٍ غير البلاد العربية . ولكنَّ الشعرَ كالعلمِ لا يحصرهُ زمَن ، ولا يحدُّهُ وَطن . فنتاجُ الفكرِ الإنسانىّ مُشترَكٌ بين المفكِّرين ، مهما اختلف جيلهم وإقليمهم

ازدهرت مدَنيَّـةُ مصر فى أقدمِ عصور التاريخ المعروفة ، فكانت أصلاً لسائر المدنيات ؛ ثمَّ كان لمدَنيَّة قدماء اليونان وآدابهم من الأثر فى تمدين سائر الأمم ما كان قبلها لآدابِ مصر . ولم يوفَّقِ العلماء لإماطةِ اللثام عن جميع أسرار الحضارة المصرية لنتعرَّف تمام أثرها فى آداب اليونان ، ولكنه أثر بليغ ثابت . ثمَّ عادت مصر ، على عهـد البطالسة ، تقتبس من الآداب اليونانية ، كما أخذ العربُ فى العصرِ العباسىّ ينقلون عنهـا . وهكذا العلم والأدب مداولةٌ بين الأمم والشعوب

لذلك خطر ببالنا ، ونحن نطالعُ شعرَ شوقى ، اسمُ شاعرٍ يونانى ، بل إنَّ شاعرَنا هو الذى أوحَى إلينا بهذا الخاطر لكثرةِ ما يُشير فى شعره إلى اليونان وعلاقتهم بمصر وبالعرب :

ورأينـــا مصراً تُعلِّمُ يونا   نَ ، ويونانَ تقُبِسُ العلمَ مصرا
تلك تأتيك بالبيانِ نبياً   عبقرياً ، وتلك بالفنِّ سحرا

ذلك شأنُ العلم ، وذلك شأن اللغة أيضاً :

فتجارَتِ اللغتانِ للغـايا   تِ فى الحَسَبِ الصميمْ
لغةٌ من الاغريقِ قيِّـــمَةٌ وأُخرى من تميمْ

وكذلك شأن العلماء والأُدباء من الفريقين :

أبُقْراطُ مثلُ ابنِ سينا الرئيـــسِ ، وهوميرُ مثلُ أبِي الطيِّبِ

ولكنَّ المصريين كانوا البـادئين :

مشَتْ بمنارهم فى الأرضِ روما   ومن أنوارِهم قَبَسَتْ أثينا

وهو يفاخر بظفره بحكمةِ اليونان :

« ظفرت بيونانَ القديمةِ حكمتى . . . »

وقبل كل هذا ألم يقُلْ فى ترجمة حياتهِ بعد أن ذكر أصول جدودهِ لأبيه وأمِّهِ : « أنا إذن عربىٌّ ، تركىٌّ ، يونانىٌّ ، جركسىٌّ . أُصولٌ أربعة ، فى فرعٍ مجتمعة ، تكفله لها مصر كما كفلت أبوَيهِ من قبل »

أمَّا هذا الشاعر اليونانى الذى نرى صورتهُ ماثلةً فى فقيدنا فهو الشاعر « بنْدار »

لَمحةٌ إلى حياتهِ تُرينا الشبَهَ بين الشاعرين :

كان بندار فى عصره ، كشوقى ، يلقّب بأمير الشعراء . وكانت إمارة الشعرِ قبله معقودةً دائمًا لأثينا ، حتى انتزعها منها وجعلها فى مدينة « ثيبـه » وطنِهِ . وقد أغدق عليه الأقيالُ والحكام العوارفَ والنعم ، فنهج نهجَ الشعراءِ متمدِّحًا بمآثر أوليـاءِ نعمتهِ . غير أنه لم يُحجمْ فى مدائحهِ عن التنديد بالظلمِ والاستبداد معلنًا أنَّ الفضيلةَ والاستحقاقَ هما ، دون سواهما ، من الخيراتِ الباقيات . وكان أدبُهُ أدبًا عفيفًا طاهرًا شريفًا ، وامتاز شعره بالانسجام والنصاعة والجلال . ولقد تغنّى بوطنه ومفاخرهِ ، ولكن ذلك لم يصرف نظرَهُ عن عيوبِ مواطنيهِ ومحاسنِ سائرِ الأوطان . وجاء فى الأساطير المنقولة عن عصره أنهُ كان نائمًا ، وهو طفلٌ ، تحتَ شجرة ، فأقبل النحلُ على ثغره يقطر فيه عسلاً ، وذلك رمزُ العذوبةِ والحلاوةِ فى شعرهِ . أمَّا موته فقد حسده عليه جميعُ الشعراء . فقد أدركتهُ المنية ، وهو فى المسرح ، بينما كانت العذارى ينشدنَ شعرَه ، والشعبُ المحتشد يُصفِّق طرَبًا .

وكذلك كان شوقى فى حيـاتهِ ، وفى مماتهِ أيضًا : فكلٌّنا

يعرفُ أنّه فى الليلة التى فارق فيها الحياة كانت إحدى المغنيات الشهيرات تُغنّى قصيدته « علّموهُ كيف يجفو فجفا » وكان الجمهورُ يُهلّل ويكبّرُ لروعة الشعر . وبعد وفاته ببضع ساعاتٍ كان شبابُ مصر يُصفّق متحمساً لآخرِ قصيدة نظمها شوقى لتحية همة الشباب فى حفلة مشروع القرش . . .

*
* *

والآن ، وقد مات شوقى بعد أن مات حافظ ، فإنّ الناسَ يتساءلون عن مصير الشعر العربى . . . ومن يُنكر أنّ هذا الشعرَ قد مُنِىَ بخسارةٍ فادحةٍ بموت الشاعرَين الكبيرين ، خسارة شعرت بها مصر أكثر من سواها لأنّهما أجلساها الصدر فى دولة الأدب . وشعرت بها مع مصر سائرُ الأقطارِ العربية ، لأنهما كانا من مفاخر لسان العرب

أمّا التنبؤُ بمن سيخلف كلاًّ منهما فى المكان الذى تبوّأه فى مملكة القريضِ والبيان ، فليس من السهل ولا بالمستطاع . فشاعرُ مصر ، بل شاعرُ العرب ، مكنونٌ فى ضمير الغيب قد تُبرِزُه الحوادثُ فى غدِنا القريب . ولا يعزبنّ عن البال أن

ما أدركهُ كلٌّ منهما من الشهرةِ وبُعدِ الصيتِ قد يكون طمس عبقرياتٍ كثيرة ستنزل إلى الميدان بعد أن خلا من فارسَيه المعلَمين ؛ كما أن ما أصابهُ كلاهما من المنزلةِ الرفيعةِ فى حياتهِ ، والاشادةِ بذكره بعد مماتهِ ، سيشحذُ القرائح والأذهان للمباراة فى حلبة الشعر

وليس من الحكمة والمنطق فى شىء أن نندبَ الشعرَ والأدبَ بعد فقد ذَينك الشاعرَين . فالوادى الذى أنجب البارودِى وصبرِى وحافظ وشوقى — ولا أذكرُ إلاَّ الأموات الذين عاصرناهم — سيُنجبُ غيرَهم من عباقرةِ الشعرِ وأعلام الأدب . فشعلُ الشعرِ لا ينضب زيته ولا يطفأُ نورُهُ ، بل ينتقلُ دائماً من يدٍ إلى يد ، تغذّيه القلوبُ النابضة والنفوسُ الحسَّاسة .

وخيرُ ما يُقال فى هذا المقام هذه الأبيات لشوقى :

قديمُ الشعاع كشمس النهـــار ، جديدٌ كمصباحِها المُلْهَبِ
أَبُقْراطُ مثلُ ابن سينا الرئيـــسِ ، وهوميرُ مثلُ أبى الطيِّبِ
وكلهمُ حجرٌ فى البنـــاء ، وغرسٌ من المثمرِ المُعقِب